

لمحات من حياتي

ثروت اباظه



لمحات من حياتي

سيرة شبه ذاتية

لمحات من حيااتي

سيرة شبه ذاتية

بقلم

ثروت اياظ

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صديق - الجيزة

١

لم يدرك بذهني يوما أن أكتب هذه المذكرات ، فأنا شخصيا لا أرى في حياتي ما يستحق الرواية . ولكن حدث في الأسبوع الماضي أن قصد إليّ مديع ليدير معي حديثا عن حياتي استغرق حوالى الساعة . وتركت نفسي على سجيّتها . ورحت أروى للميكرفون بعض ذكريات من حياتي كان بعضها يمسك برقاب بعض وتستدعى الذكرى صاحبها . ولاحظت أن المديع يضحك في سعادة غامرة مما أروى . فلما انتهى الحديث سألت نفسي : ومالى لا أروى هذه الذكريات لقارئى ربما وجد فيها من المتعة ما وجده هذا المديع ؟

والذى بينى وبين القارئ أمر ميسور ، فهو يستطيع أن يضم دفتى الكتاب الذى بيده ويقطع صلته به ، وأذكر له بيت الشعر القديم :
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمّر بمكة سامر

وحسبه الله بعد ذلك فيما خسر من ثمن الكتاب ، فإن وجد المتعة التى أتمناها له وأنشدها وأسعى إليها فالحمد لله على الحالين ولحمض فى قراءة الكتاب .

وربما زاد من ترددى كتاب كتبته قبل هذا بعنوان : « ذكريات لا مذكرات » ولكنى قضيت على هذا التردد بأن كتابى الأول كان يحمل

صلاقي بمن عرفتهم من مشاهير وغير مشاهير .
ولكننى أعتقد أن هذا لن يكون المنحى الذى سأنحوه فى كتابى هذا
الذى بين يديك . أما كيف أنحو فعلم هذا عند علام الغيوب فما خططت
خطة بذاتها ولا انتهيت إلى رأى معين ، وإنما سأسير وإياك عبر أيامى منذ
وعيت الحياة حتى اليوم الذى بدأت فيه كتابة هذا الكتاب ، وإلى إن شاء
الله واجد له عنوانا . ولكنك لا بد أن تعلم أن هذا العنوان قفز إلى ذهنى
وأنا أكتب هذا الكتاب ولم أضعه قبل بدء الكتابة كما ينبغى أن أفعل . فقد
خشيت أن يحول العنوان بينى وبين الترسى الذى أحب أن أتركه يحدو
قلمى ، ويسير به سيرا متحررا من كل قيد بعيدا عن القيود جميعها .
من الطبيعى أن أبدأ بالسنوات الأولى من حياتى :

* * *

قيل لى إننى وُلدت بمنزل بشارع جوهر القائد بحى المنيرة ، ولكننى لم
أر هذا البيت إلا مروراً به ، أشارت إليه والدتى وكنت أركب معها
السيارة ، وقالت إننى ها هنا ولدت . فما وعيت منه إلا اللمحة العابرة
التي تتيحها سيارة تمضى فى طريقها ولا تتوقف . أما البيت الذى نشأت
فيه وأقمت فيه كان ملكاً لأبى بشارع الملك الناصر رقم ٢٤ بحى المنيرة
أيضاً ، وكان البيت هو المبنى الثانى فى الشارع من ناحية الدواوين ، وكان
المبنى الأول مدرسة أهلية دخلتها وانتظمت فيها لبضعة أشهر ، وقد كان
المبنى المقابل لها مستشفى الملك ، ولا بد أن اسمها قد تغير حين أرادت
الثورة حذف الملكية من تاريخ مصر . وكان يلاصق المستشفى مدرسة
الحديوى لإسماعيل التي لا أدري اسمها الآن هى أيضاً ، فإن الثورة قررت أنه لم

يكن في مصر خديو اسمه الخديوى إسماعيل إلا أن يذكر مشغوما ملعونا .. أما أن يذكر بدون تعليق فأمر لا ترضاه الثورة الاشتراكية .

نشأت في هذا البيت ودخلت المدرسة الملاصقة لبيتنا ، وأذكر أن والدى ووالدى كانا يطلان على من إحدى نوافذ بيتنا ، وكان أبى يحرك لى منديلا فى يده حتى أتنبه إلى وجودهما بالنافذة .. وأذكر أننى فى اليوم الأول لذهابى إلى هذه المدرسة رفضت أن أذهب إلا إذا صحبت محمد أبو عثمان الذى كان يعمل طبّاخا فى بيتنا ، وكان يلاعبنى ويضاحكنى وكنت معجبا به كل الإعجاب .. وهو ما زال على قيد الحياة أطال الله عمره . وقبل ناظر المدرسة أن يدخل محمد أبو عثمان الفصل معى ، وكان فى الفصل يقف بجانب الباب فكان وقوفه هذا يرد عنى الوحشة التى كانت تلم بى وأنا مع تلاميذ لا أعرفهم ولا يعرفوننى .

وفى اليوم التالى كنت بالفصل أكثر أنسا حتى لم أتنبه إلى أن محمدا قد غادر الحجرة إلا بعد حين ، وسألت عنه فوجدته بالمدرسة ما زال فعادت إلى الطمأنينة . أما فى اليوم الثالث فقد صدر الأمر من والدى أن يصحبنى محمد إلى باب المدرسة الذى كان يقع بشارع الدواوين ثم يتركنى وحدى .. وقد بكيت لهذا الإجراء بكاء حارا .. ولكنه كان أمرا صارما لا رجعة فيه . ذكرياتى فى هذه المدرسة تكاد تكون معدومة . ولا أذكر من رفاقى بها أحدا إلا أنها كان لها الفضل أن أذهب إلى مدرسة المنيرة لرياض الأطفال وأنا غير مضطرب الفؤاد ولا هالعا ، والذى أذكره عن المدرسة الجديدة أن ناظرة المدرسة كان اسمها السيدة روفية رمضان ؛ ولا زالت صورتها فى ذاكرتى حتى اليوم وأذكر من مدرساتها أيضا

السيدة توحيدة الدمرداش وكانت ترعاني بمحذب ورضاء ، وأذكر أن أستاذة الرسم كان اسمها الأستاذة نعيمة التي جعلتني أرسم رسما جميلا ، الأمر الذي لم يتكرر في المدرسة الابتدائية أو الثانوية رغم أن الذي كان يدرس لي الرسم في المدرسة الابتدائية الأستاذ الفنان الكبير حسين بيكار ، كما كان يدرس لي فنان الكاريكاتير العظيم الذي اشتهر باسم مفرد هورمزي . ومع ذلك كنت دائما لأجيد الرسم مطلقا لدرجة أن والدتي وأنا أنتظر نتيجة الابتدائية كانت دائما تقول إنها خائفة أن أرسب في مادة الرسم ، والعجيب أن حدسها أو شك أن يتحقق وحصلت في مادة الرسم في شهادة الابتدائية على أربع درجات من عشرين ، وهي الحد الأدنى للمرور ولا أقول النجاح .

قضيت في مدرسة الروضة سنتين وأذكر أنني كنت متقدما لأنني سبقت زملائي في تعلم اللغة العربية والحساب على يد الشاعر الأستاذ أحمد القرعيش ببلدتنا غزالة ، وقد كان مدرسا بالمدرسة الإلزامية بها ، وكان أول من علمني بادئا بالخط الأفقي والخط الرأسى ، وأذكر أنه كان يشكل هذه الخطوط على الرمال ، فقد كنا نجلس على أريكة خارج المبنى الذي يعمل به كاتب الحسابات لزراعة أوى . وأشهد أن الأستاذ القرعيش هو أحسن أستاذ تلقيت عنه العلم .. فقد كان قديرا على تيسير المعلومات على .. وكان حريصا على تشجيعي حتى أنه كان يحمل معه أقراص النعناع الصغيرة يتحفني بواحد منها كلما أجدت الإجابة .. فإذا علمت أنه كان من كبار البخلاء أدركت التضحية التي كان يقوم بها ليصل بتلميذه إلى أحسن مستوى . وقد كان الأستاذ القرعيش شاعرا مجيدا .

وحين بلغت السنة الثانية الثانوية كنت أقرأ معه ومع قريننا الشاعر العصامي توفيق عوضى أباطة الذى علم نفسه ولم يختلف إلى مدرسة في حياته لشدة فقره ، كنا نقرأ معا الشوقيات في بيتنا بالقرية .. وكنا نبدأ القراءة بعد أن يصعد أى إلى الدور الأعلى من المنزل في حوالى الساعة التاسعة مساءً ، ونظل نقرأ على الكلوب الذى ينير بالجاز حتى يطلع علينا الصباح ونقرأ على ضوء الشمس . وكنت انا الذى أقرأ ، والشاعران يستمعان ويستجيدان ويعلقان . وللاستاذ القرعيش فضلٌ علىّ لا أنساه أبداً .. فقد كنت أكثر من اللحن في قراءتى ، وكان يصحح لى ، وقال لى : إذا كنت تريد أن تكون أديبا فلا بد أن تقيم لسانك وإلا فلن تصبح أديبا مطلقا . ويا ليتة عاش حتى اليوم حتى يرى مقتل اللغة العربية على أيدي أدبائها . لا علينا ! . خجلت من هذه الملاحظة فحين ابتدأ العام الدراسى في السنة الثالثة الثانوية أعدت قراءة النحو وأخذت نفسى طوال السنة الثالثة الثانوية — وهى تقابل السنة الأولى الثانوية اليوم — أن أقرأ كل المواد العربية من تاريخ وجغرافيا وطبيعة وكيمياء بصوت مرتفع وأصحح لنفسى الإعراب فى كل قراءتى . حتى إذا جاءت الإجازة وبدأ ثلثتنا قراءة الشوقيات فوجئ الشاعران بى وأنا لا أخطئ فى النحو مطلقا أو أكاد .. وهكذا استقام لسانى العربى كما استقامت كتابتى ، والفضل فى ذلك لمعلمى العظيم الأستاذ أحمد حسين القرعيش .

نعود إلى مدرسة المنيرة لرياض الأطفال التى مكثت بها كما أخبرتك سنتين . وقد وقعت لى مع هذه المدرسة نادرة طريفة ، فقد دعانى ناظر مدرسة لا أعرفها وأنا كاتب بالأهرام أن أعقد ندوة مع تلاميذ مدرسته .

ولبيت دعوته وذكر لى العنوان وذهبت ، وفوجئت أننى أعرف معلم المدرسة — وإن كانت معرفة باهتة — كما يقول الشاعر عن ذكرياته إنها تلوح كباقي الوشم بظاهر اليد . وما لبثت أن تبين أن المدرسة التى أعقد بها ندوتى هى روضة الأطفال التى كنت أتعليم بها وأصبح اسمها مدرسة المنيرة الابتدائية ، وقد سعدت بهذه المصادفة كل السعادة .

دخلت بعد ذلك مدرسة المنيرة الابتدائية متقدما على سنى بسنة ، لأنه كان من المفروض أن أظل سنة ثالثة بالروضة إلا أن أبى رأى أن أقفز سنة . وهكذا لم يكن غريبا أن أرسب فى السنة الأولى الابتدائية . وأذكر أن أبى استاء كل الاستياء من رسوبى هذا ، وكان له صديق قريب إليه كل القرب وهو عبد الله أفندى العربى من بلدة الخيس القرية من بلدتنا غزالة بمرکز الزقازيق . وقد فاتنى أن أذكر لك أننى حين ولدت بالقاهرة رفض أبى أن يقيدنى من مواليد القاهرة ، وقد ولدت فى ٢٨ يونية عام ١٩٢٧ ، فانتظر أبى إلى أن ذهب إلى غزالة وقيدنى بها فى ١٥ يولية ١٩٢٧ ، حرصا منه أن أنتسب إلى بلدتنا غزالة التى كان يحبها كل الحب ، حتى أنه كان يوقع مقالاته السياسية بتوقيع الغزالى أباطة .

نعود إلى عبد الله أفندى العربى صديق أبى الذى اكتسب لقب أفندى من أنه كان مدرسا بالمدارس الابتدائية ، وكان يُدرّس لشقيق أبى الأصغر عبد الله بك فكرى أباطة حين كان تلميذا بالمدرسة الابتدائية ، وكان معجبا بطريقة تدريسه .

وكانت صلة الأستاذ العربى بوالدى وثيقة غاية الوثوق ، حتى أنه كان يسافر معه إلى الخارج على نفقته الخاصة ، فقد كان ميسور الحال . وقد

ليست أول ساعة في حياتي هدية من عبد الله أفندى العربى .
حين رأى عبد الله أفندى الحزن يخيم على لرسوى في السنة الأولى
الابتدائية ، ورأى الاستياء الشديد من أبى لهذا الرسوب ، جاء إلى منزلنا
قبيل المغرب في يوم من هذه الأيام ودعانى أن أخرج معه ليرفه عنى .
وذهبنا إلى مقهى بالجيزة ربما يكون هو المقهى الذى تعود بعض الأدباء أن
يجلسوا به .. وقد كنت أشاركهم الجلوس به في بعض الأحيان ، ولو أننى
لست واثقا أنه نفس المقهى ، فقد صحبتنى إليه عبد الله أفندى في أوائل
الثلاثينيات وجلست مع الأدباء في الستينيات .. فمن الصعب أنؤكد
إن كان المقهى هو نفسه الذى جلست به وأنا طفل . واشترى عبد الله
أفندى لى وله جينا وسلطانية زبادى ورغيفا لكل منا من الخبز الإفرنجى
فكانت من أمتع الأكلات التى طعمتها في حياتي . وإلى أروى هذه الواقعة
على بساطتها لأن عبد الله أفندى العربى قال لى في هذه الجلسة جملة لم أنسها
حتى اليوم ، وكانت تمثل لى في ذلك اليوم ضوءا ساطعا من الأمل في ظلام
اليأس الذى ران على من سقوطى في السنة الأولى الابتدائية . قال لى :
— يابنى لا تحف ! لا بد أنك ستفلح في حياتك ، فإن الخير الذى قدمه
أبوك للناس لا يمكن أن يذهب هباء .. سيكرمه الله فيك إن شاء الله ..
لا تحف .

بعد ذلك بسنوات — ما دمنا نذكر عبد الله أفندى العربى — مرض
رحمه الله نتيجة إبرة طبية كسرت في فخذه وهو يتداوى بها . وحين
كنا ننتظر نتيجة الشهادة الابتدائية وكنا قد انتقلنا إلى العباسية ، كان هو
طريح الفراش . وفي أحد الأيام دق جرس التليفون في الساعة السابعة

صباحا ليشرني عبد الله أفندي العربى أننى نجحت فى الابتدائية ، فقد
صحا مع الفجر ليعرف نتيجة الشهادة التى كانت تنشر فى صحف
الصباح فى تلك الأيام .

والعجيب أن عبد الله أفندي العربى مات فى اليوم نفسه ، وكأنه كان
يستعمل الموت حتى يشرنى بنجاحى .

كانت مدرسة المنيرة الابتدائية من أعظم مدارس مصر ، وكان ناظرا
فيها الرجل العظيم فهمى بك الكيلانى والد المديعة المتميزة سميرة
الكيلانى ، وكان لها أخ يزا من فى المدرسة اسمه سمير . وكان بها أساتذة من
أحسن أساتذة المدارس أذكر منهم الأستاذ الشيبانى الذى لا أنسى واقعة
لى معه ، يوم دخل إلى الفصل وكتب على السبورة بضعة أبيات أذكر
مطلعها :

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النضرة
وكان اسم القصيدة « الله » جل جلاله ، وألقى بالطباشيرة والتفت إلى
التلاميذ وسأل من يستطيع أن يقرأ هذه الأبيات ؟ فرفعت إصبعى وكنت
لطول قامتى أجلس فى آخر الفصل . وأوليت ظهرى للسبورة وألقيت
أبيات القصيدة جميعا . وحين استدرت صفقى لى التلاميذ ووجدت
الأستاذ مذهولا وقال لى : ماذا أقول لك يا بنى ؟ ماذا أقول ؟ ابن الوز
عوام . وأعطانى الدرجة النهائية .

أذكر أن هذا كان فى السنة الثانية الابتدائية ، وقد كنت متفوقا فى هذه
السنة تفوقا لم تشهده حياى الدراسية قط لدرجة أننى فى أحد امتحانات
الفترة كان ترتيبى الخامس ، وأعتقد أن هذا التفوق كان نتيجة لرسوبى فى

السنة الأولى .

ومن المدرسين الذين أذكّرتهم في مدرسة المنيرة الأستاذ محمد البابلي والد الممثلة الرائعة سهير البابلي ، وكان هناك أيضا حبشي أفندى الذى أعتقد أن كل زملائى في مدرسة المنيرة يذكرونه معى ، وكان دائما يسأل التلاميذ : مين باباتك بس ؟ فيجيب التلميذ : حبشى أفندى بس . وفى مرة قال لى : يلعن أبوك ! وكان متعودا أن يقولها للتلاميذ ولا يعلقون . أما أنا فاستهولت الأمر ونقلته إلى أبى ، وأعتقد أنه كان فى ذلك الحين وكيلا لمجلس النواب ، وكان من عظماء مصر بشخصيته وبتاريخه الشاهق فى ثورة ١٩ ، ولم يكن محتاجا إلى منصب ، فقد كان الجميع يحترمونه ويقدرونه لذاته لا لمنصبه .

وذهب إلى الناظر فهمى بك الكيلانى وقال : ربما يكون ثروت قد أخطأ ، فما ذنبى أنا ؟ واستدعى الكيلانى بك حبشى أفندى ، وسأله : هل لعنت أبا ثروت ؟ فقال : نعم . وقبل أن يغضب أبى استمهله حبشى أفندى ثم نظر إلىّ :

— مين باباتك بس ؟

قلت : حبشى أفندى بس .

فنظر إلى أبى :

— سعادتك لا شأن لك بالموضوع . أنا أشتم نفسى .

ولم يملك أبى إلا أن يضحك وينصرف .

وقبل أن أبتعد عن القصيدة التى ألقيتها فور كتابتها ، أذكر أن أبى كان يجتمع فى كل يوم بمكتبه بالمنزل بجماعة لا أعرف منهم أحدا ، وفهمت

أنهم كانوا يعدون لإقامة حفلة تأبين في ذكرى شاعر النيل حافظ إبراهيم . وحدث أن فتحت الغرفة بمظنة أن أبى وحده ، ولكنى وجدت معه هذه الجماعة .. فاستدرت لأخرج ، ولكن أبى نادانى وطلب إلى أن ألقى بينهم شيئا من محفوظاتى ، فألقيت الأبيات التى عنوانها : « الله سبحانه وتعالى » ، والتى مطلعها :

انظر لتلك الشجرة ذات الغصون النظرة

فإذا بواحد من الجالسين يصيح :

— رفع الله رأسك كما رفعت رأسى .. أنا صاحب هذه الأبيات . وعرفت أن الشاعر هو محمد المبرأوى ، وقد كان صاحب شهرة هائلة فى هذا النوع من الشعر السهل الممتنع ، الذى كان يحفظه تلاميذ المدارس فى ذلك الحين .

وما دمت قد ذكرت هذه الاجتماعات فلا بد أن أذكر ما نتج عن تجمعها . فقد أقيمت حفلة تأبين ضخمة فى دار الأوبرا المصرية ، وقد شهدت هذا الحفل ، ولا أنسى الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازنى الذى كان بين المتحدثين ، وقد كان معروفا عنه وعن أستاذنا العملاق عباس العقاد أنهما كانا من أشد المهاجمين لأمر الشعراء شوقى ولشاعر النيل حافظ إبراهيم .

وأذكر أن الأستاذ المازنى العظيم تقدم إلى مقدمة المسرح وقال ما معناه « أشهد الله والحق أننا هاجمنا شوقى وحافظ لنهدمهما ونقف على أنقاضهما ، فلم نل إلا من الحق ومن أنفسنا » .

وكنت فى هذه السن الباكرة أصعب أبى فى كل تنقلاته ، وقد جعلنى

هذا التنقل أعود مجالسة الكبار واحترامهم دون أن أرهبهم . وأذكر أن محمد باشا محمود الزعيم النبيل كان يأتي أحيانا لزيارة أبي قبل أن يكمل أبي لبس ملابسه ، فيأمرني أبي أن أنزل إلى صاحب المقام الرفيع محمد باشا محمود وأجلس إليه حتى يكمل هو ملبسه .

وكان الباشا يهش لي ويأنس إليّ حتى ينزل أبي ، وأترك الكبيرين وأنصرف إلى ملعبى .

وكان أبي يصحبني وأنا في هذه السن إلى مجلس النواب لأشهد الجلسات من شرفة الزوّار ، وأذكر أن رئيس المجلس في ذلك الحين كان توفيق باشا رفعت ، وكان رجلا رقيق الجسم ضخّم الشاربين . ووقعت عينه عليّ في شرفة الزوّار ، ويبدو أنه تعجب من وجود طفل في مثل سنى في هذا المكان ، فشهدته يشير إلى الساعى الخاص بالرئاسة ويهمس في أذنه ، فإذا بهذا الساعى يصعد إليّ ويسألنى : من أنت ؟ وقلت له . وشهدته يعود إلى الباشا ويهمس في أذنه .. ويهز الباشا رأسه موافقا .

وحين دخلت كلية الحقوق وجدت الغالبية الكاثرة من الطلبة لم يشهدوا جلسة واحدة لمجلس النواب أو الشيوخ ، بل إن أغلبهم لم يذهب إلى البرلمان في حياته ولا مرة واحدة . كان أبى يحرص على أن أكون معه أغلب الوقت دون إخوتي . أما إخوتي فهم شامل الذى نال الدكتوراه من تولوز بفرنسا ، ثم ارتقى في الوظائف بالشركات حتى وصل إلى رئيس مجلس إدارة شركة الأقطان بالإسكندرية ، كما كان عضوا بمجلس الشعب في انتخابات ١٩٧٦ . وكما أسعدنى أننى كنت أمر معه في الدائرة فكان الناحيون يقولون لي في وجهى : نحن لا ننتخب أحاك ولا ننتخبك وإنما

نتخب أباك . وكان قد مر على وفاة أبى قرابة ربع قرن فقد توفى فى يناير ٥٣ ، ولا شك أن أغلب الذين كانوا يقولون لى هذا من أبناء من عرفوه أو من أحفادهم . وكان ربع القرن هذا الذى يفصل بين وفاة أبى وبين الانتخابات فترة كلها هجوم على الباشاوات والسياسيين الذين يمثل أبى فيهم صورة جليلة الملاح ، ولهذا لم يكن غريبا أن أقول يوما للدكتور ثروت عكاشة وهو وزير للثقافة والإعلام : نحن إقطاعيون ولو أن الثورة لم تأخذ منا مليما واحدا ولا سهما من أرض .. فنحن لسنا أغنياء ، ولكننا إقطاعيون بحب الناس لنا وبحبنا للناس ، وهو إقطاع لم تستطع الثورة ولن تستطيع أن تمسه أو تنقص منه .

وشامل يصغرنى بستتين وبضعة أشهر ، فهو من مواليد أبريل ١٩٣٠ وأنا لا أذكر أحداث اليوم الذى ولد فيه .. وإنما نشأت وأنا أجدّه . وشامل شاعر متمكن وإن كان قليل النشر ، وقد نظم الشعر فى سن باكرة مع أنه نال بكالوريوس التجارة ويعتبر اليوم من أكبر خبراء الاقتصاد فى شئون القطن ، وقد نال الدكتوراه فى الإصلاح الزراعى وهو أخى الوحيد ، وله ابنة هدى الحاصلة على ماجستير فى الآداب ومدرسة بكلية الآداب وابن إبراهيم الحاصل على ليسانس الآداب ، ولى بعد ذلك أختان أكبر هما زينات وأذكر يوم ميلادهما ذكر اهشافقد ولدت بغزاة وأذكر أن البيت كان هائجا ، وقيل لى إن ذلك الهياج كان بسبب حالة الولادة . وقد تزوجت زينات ابن عمنا طوسون أباطة الذى تربى فى المدارس الإنجليزية وهذا ما يجعلنا غمازحه ونعتبره خواجه . وقد أنجب الزوجان ابنا هو أبو بكر ونال بكالوريوس التجارة ويعمل بالبنوك ، وابنة أسمياها دلبار على

اسم جدق لوالدى . وقد نالت بكالوريوس الطب ولم تعمل بها .. وإنما تزوجت وتقيم مع زوجها في أمريكا . وقد نشأت زينات متعلقة بالأطفال منذ صغرها ، وإن فيها حنانا لو وزع على الكرة الأرضية للأها رحمة ومحبة .

وأختى الصغرى هى كوثر ، وأذكر مولدها في حلوان .. وكنت في التاسعة من عمري . وأذكر في يوم مولدها أن أبى كان جالسا في حجرته وحلاله أن يعلمنى بعض كلمات في الإنجليزية فكتب عشر كلمات ، وقال : احفظ هذه الكلمات . فأخذت الورقة ونظرت فيها لحظة وأعطيته ، فدهش وقال في غيظ :

— اسمع أنت لم تكدرى الورقة .. فإن كنت حفظت في هذه اللحظة الوجيزة كل الكلمات فسأعطيك عشرة قروش ، وإن أخطأت في كلمة واحدة سأضربك .

وأبى لم يكن ضربنى حتى ذلك اليوم إلا مرة واحدة يوم أخبرته المربية العجوز أنني أذهب إلى المدرسة دون أن أغسل وجهى ، ولهذا وقع عهديده من نفسى موقعا مخيفا ، ولكن الله ستر وأخذت القروش العشرة .

وكوثر أختى كانت تعتبرنى المربى الأول لها ، فقد كنت أخالطها أكثر مما تخالط أبى ، ولهذا كانت في طفولتها تخشانى . ولكن ما لبثت هذه الخشية أن زالت مع الزمن وحل مكانها الحب الذى يكون بين أخ وأخته لا يرنق صفاء شئ . وقد تزوجت كوثر من الطبيب الشهير أحمد عبد العزيز إسماعيل نجل الطبيب العملاق الأشهر عبد العزيز باشا إسماعيل وقد أنجبا بنتين هما : سناء وهى حاصلة على الدكتوراة من كلية الاقتصاد

(لمحات من حياتى)

والعلوم السياسية وتُدْرَس بها ، وهى متزوجة من المهندس شريف نجل المستشار العظيم الخريبي بك ، وأختها وفاء حاصلة على الماجستير من نفس الكلية وزوجها د. محمد الخولى طبيب أطفال وابن الطبيب الشهير الدكتور الخولى ، كما أنجبت أختى وزوجها ابنهما الوحيد عبد العزيز وهو مهندس .

تلك هى أسرتى وقد شهد أبى زواج زينات وزواج كوثر ، وقد صحبها زوجها إلى أمريكا بعد الزواج مباشرة ليكمل دراسته بها . ولم يشهد أبى زواج شامل فقد تم بعد وفاته ، ولو كان شاهده لفرح به وباركه كل المباركة .. فقد اختار شامل شريكة حياته ابنة محمود فهمى النقراشى باشا الذى كان صديقا لأبى فى مطالع شبابهما ، ثم افترق الصديقان فترة حين نشأ حزب الأحرار الدستوريين عام ٢٢ وكان أبى من منشئيه ، وأصبح أبى حرا دستوريا . وظل النقراشى باشا فى الوفد حتى خرج عليه هو وأحمد ماهر باشا عام ١٩٣٨ ليكونا حزب الهيئة السعدية ، وقد ألف النقراشى باشا الوزارة .. وكان أبى وزيرا فيها معه ونال الباشوية فيها . وعادت الصداقة تربط بينهما من جديد كأنهما ما تفرقا .. وظلا صديقين حميمين إلى أن استشهد النقراشى باشا على يد أحد مجرمى الإخوان المسلمين .

٢

ترانى أسوق إليك الحديث فى عفوية ودون إعداد .. فأنا لم أضع خطة للحديث إليك ، وإنما أترك حياتى تتواكب فى ترسل تمسك فيها الواقعة بالواقعة والمناسبة بالمناسبة ، وما هكذا عهدت الكتب التى كتبت فى السيرة الذاتية ، ولكن أى بأس علىّ وأى بأس عليك أن يكون حديثنا حديث صديق لصديق أو أخ إلى أخيه فى غير تنسيق أو تبويب أو تجمل .

فخذ بيدى ولتمض معا على هذا الطريق .. وأنا وإياك على فيض الكريم .

كان من بين الجماعة التى تنظم حفلة تأييد حافظ إبراهيم الأستاذ العظيم كامل الكيلانى وكان فى هذه الأيام قد بدأ كتابة مؤلفاته الرائعة فى أدب الأطفال أو قصص الأطفال إن شئت .. وهى مكتبة ليس لها مثيل فى الأدب العربى أجمع .. فقد استطاع الأستاذ الكيلانى أن ييسط الأدب العالمى ويجعل الطفل فى سن باكورة يتعرف على أمهات هذا الأدب ، وقد كانت أعظم هدية أتلقاها من أبى فى هذه الفترة هى كتب كامل الكيلانى . وأذكر وأنا فى الثامنة من عمري أن الأستاذ الكيلانى أهدى عشرة كتب من مؤلفاته إلى أبى . وأعطانى أبى الكتب ، ودخلت إلى غرفتى وانبطحت أرضا وبدأت أقرأ الكتب ، فما زلت بها حتى أتيت عليها وأنا فى عالم سحرى عجيب .. وأعتقد أن هذه السنوات كانت أجمل سنوات حياتى ، وأجمل أوقاتها هى تلك التى بدأت فيها أتعرف على

الكتاب وأصحابه صحبة دامت حتى يومنا هذا .
وقد استطعت بفضل مكتبة الكيلاني أن أنتقل إلى الأدب الكبير دون
أن أشعر بأى جهد . فحين بدأت قراءته سيطرت علىّ متعة القراءة ،
وانتقلت بعد ذلك إلى تيمور .. ثم في غير ترتيب زمني رحت أقرأ
للعالمقة مبهورا بهذه العوالم التي تفتحت آفاقها أمام عقلى ووجدانى
وكيافى كله ، وأنا أقرأ لطفه حسين وهيكلى والعقاد والزيات وأحمد أمين
والمازنى .. الذى كثيرا ما جعلنى أقهقه وأنا أقرأه وحدى فى غرفة
مغلقة .. وتعلو قهقهته ويسمعه الذين بخارج الغرفة .. والله وحده
يعلم ماذا كان يظن بى الجالسون خارج الغرفة .

وأذكر فى هذه الأيام أننى كنت فى مدرسة المنيرة الابتدائية .. وقد
تضحك كثيرا إذا علمت أننى كنت فى فريق الكشفافة ورقيت فى هذا
الفريق حتى أصبحت رئيسا للفريق ، وقبل أن أحصل على الابتدائية
اشترى أبى بيتا جديدا فى العباسية وظللت بضعة أسابيع أستقل ترام رقم
٢٢ لأذهب من العباسية إلى المنيرة ، ولكن هذا كان يكلفنى أن أصحو
مبكرا عن موعد المدرسة بساعة أو أكثر . وقد عشت عمرى أكره شىء
إلى نفسى أن أبكر فى الاستيقاظ ، وما هذا إلا لأننى كنت أسهر إلى
ساعات متأخرة من الليل أقرأ .. وكانت القراءة تستهوينى وتبتلعنى حتى
ما أفيق إلى الساعة التى أنا فيها . وقد ظللت عمرى كله لا أنام إلا بعد أن
أقرأ .. وقد أقرأ أربع ساعات متصلة أو أقل أو أكثر .. ولكن لا بد أن أقرأ
على أية حال . حتى فى رأس البر .. ولم تكن الكهرباء متاحة لى ، فكنت
أضع على صدرى بطارية جيب وأقرأ عليها حتى يخفت نورها وتصبح

الكلمات غير مقروءة فأنا مرمغا .

وهكذا انتقلت إلى مدرسة العباسية الابتدائية ، في منتصف العام الذى كان مفروضا أن أتقدم فيه لنيل الشهادة الابتدائية .
والحقيقة أنه ليست لى ذكريات كثيرة عن مدرسة العباسية إلا أننى كان لنا مدرس حبيب إلى نفوسنا نحن التلاميذ اسمه التاجى أفندى ، ومنذ أسابيع قليلة التقيت بطبيب يحمل نفس الاسم فإذا به ابنه الذى يبلغنى أن أباه — أطال الله عمره — يتمتع بصحة جيدة والحمد لله . وكان الأستاذ التاجى هو المسئول عن فريق الكشفة وما إن علم أننى كنت رئيس الكشفة فى مدرسة المنيرة حتى جعل منى رئيس الكشفة فى مدرسة العباسية أيضا .

ومن بين تلاميذ فصلى زميل لن أذكر اسمه حفاظا منى على حق الزمالة .. جاء فى الحصة رسول إلى هذا الزميل فأبلغه بموت أبيه .. فرحنا جميعا نغزيه ، وخرج التلميذ وانقضى العام وتفرق فصلى .
ومرت أعوام ودخلت إلى كلية الحقوق وأصبح أبى وزيرا للأوقاف من بين الوزارات التى تولاها فى هذه الفترة .. وفوجئت بهذا الزميل يرسل إلى خطاب توصية لأعين حامله إماما بأحد المساجد ، واهتممت بالشيخ وأخذته معى فى السيارة لأذهب به إلى وزارة الأوقاف .. وبعد المنزل ببضعة أمتار توقفت السيارة فى حاجة إلى بنزين فنزلت وناديت خادما من بيتنا ليأتينى من والدتى بثمان البنزين ، وكان كل ما أطلبه لا يزيد على عشرة قروش فقد كانت سيارتى صغيرة وكان البنزين يباع فى هذه الأيام بوحدة الجالون وكان الجالون أربعة لترات وقد كانت كافية أن أسير

بالسيارة يومين أو أكثر. وفي انتظار القروش العشرة نزلت من السيارة أنا والشيخ .. وإذا بالشيخ يخرج من جيبه ظرفا فيه بضعة نقود جديدة قدرت بالنظرة السريعة أنها خمسة جنيهات وقدم الشيخ النقود إلى .. وفي لحظة وجدت الدماء تصعد إلى رأسي ، وأتناول النقود وأمزقها وألقى بها إلى الأرض . وما زلت ألوم نفسي على هذا الذي فعلته حتى اليوم ، ولا يخفف عني اللوم إلا أنني حين مزقت النقود لم أجعلها غير صالحة للاستعمال بعد ذلك .

وطردت الرجل الذي راح يللمم النقود وانصرف . ومرت سنوات وتزوجت وأقمت بشقة بالزمالك . وكنت مع زوجتي في سينما في الحفلة الأخيرة وعدت إلى منزلي الساعة الثانية عشرة مساء تقريبا .. فوجدت هذا التلميذ الذي أبلغ بموت أبيه في فصلنا بالعباسية ، ودهشت لوجوده .. فإذا هو يبلغني أن أباه مات اليوم وأنه لا يملك ما يدفنه به ، وطلب مني مبلغا من المال لم يكن من اليسير وجوده في هذه الأيام ، ورحنا أنا وزوجتي نجمع ما معنا حتى أكملنا المبلغ وأعطيته له وأنا أعلم كذبه . وأغلب الأمر أنه نسي أنني شهدت علمه بموت أبيه قبل اليوم الذي قصد إليّ فيه بأكثر من أحد عشر عاما ، أو لعله توهم أنني نسيت ذلك اليوم .

ولم أقل له إنني أذكر يوم وفاة أبيه ، ولكنني لم أره بعد ذلك اليوم ، ولعله رأى في عيني ما حاولت أن أخفيه عنه .

انتقلت بعد ذلك إلى مدرسة فاروق الثانوية وربما كانت أفخم مدرسة في مصر في ذلك الحين .. فقد كانت حديثة الإنشاء والذي

أنشأها رجل التعليم الشهير الأستاذ إسماعيل القباني على أساس أن تكون مدرسة نموذجية ، وتولى هو نظارتها . ولكننى حين ذهبت إليها كان قد تركها وكان الناظر فيها الأستاذ العظيم عبد الواحد بدر خلاف ثم تلاه الرجل العظيم الآخر نجيب هاشم الذى أصبح بعد ذلك وزيرا للتعليم .. ثم سفيرا لمصر فى الفاتيكان . ولعله من الطريف أن أروى أنه كان سفيرا فى أول مرة أزور أنا فيها روما مقر سفارته .. وقبل سفرى عثرت على خطاب منه إلى أبى يشكو فيه من كثرة تغيبى عن المدرسة ، وعلى ظهر الخطاب رد أبى الذى كتبه لينقله سكرتيره ويرسله إلى حضرة الناظر . وكان خطاب أبى يحث نجيب بك أن ينزل لى ما يشاء من عقاب ، وأن أبى من جهته سيحرص على ألا أتغيب عن المدرسة . وقد استقبلنى نجيب بك فى روما أحسن استقبال وقدمت له هذا الخطاب الذى لا يشرفنى .. وضحكنا كثيرا بما يحويه ، وقد تفضلت السيدة الكريمة حرمة باصطحابى أنا وزوجتى إلى كثير من معالم روما ونوافيرها ، وكنت فى ذلك الحين قد أصبحت أديبا معروفا ، وكنت حصلت قبل زيارتى لروما بعشر سنوات على جائزة الدولة التشجيعية ، وهكذا كان نجيب بك سعيدا لى سعادة أب بابنه .

وقد كان نجيب بك محقا فى شكواه من تغيبى ، فقد كنت قارئاً متهوسا ولم أكن أترك المدرسة لأذهب إلى أى مكان وإنما كنت أنزل من الطابق الأعلى فى بيتنا وأتسرب إلى حجرة فى الطابق الأدنى وأقفل الباب ، وأروح أقرأ فى كتب الأدب .

وكان كبير الخدم عندنا اسمه عم أحمد ، وكنا نناديه بلقب عم أحمد

توقيرا له . وفوجئت يوما وأنا في خلوة قرائتي بباب الحجرة يكاد ينخلع من مكانه من شدة الخبط عليه ، وفزعت إلى الباب وفتحته .. فإذا بالدتي أمامي تتميز من الغيظ، ولولا أنني كنت قد تجاوزت الطفولة إلى مطالع الشباب لانهالت عليّ ضربا ، وأمرتني أن أذهب إلى المدرسة فوراً . فقد كانت أُمى حريصة حرصا مبالغاه أن أنال الشهادة العالية لدرجة أنني كنت إذا ظهرت نتيجة العام وأنا لى ملحق في مادتين أو أكثر ، تمرض والدتي بضعة أيام وتمتنع عن الطعام . وكان حزن والدتي يتمثل في النوم ، كانت إذا حزنت نامت وهذا من لطف الله بها ، وكانت رحمها الله تستحق هذا اللطف من الله .. فإني لم أعرف أما رعوما في مثل حنانها ، وكانت تعين البائسين وذوى الحاجة وتسعى لهم لدى أُنى حتى يقضى حوائجهم . ولا أذكر أنها تأخرت عن قاصد لها مطلقا .

لم أنته بعد من قصة أُمى وضبطها لى متخلفا عن المدرسة .. عدت من المدرسة وذهبت إلى والدتي وكانت رحمها الله قرية الرضى ، وظللت أتلطف معها حتى عرفت أن الذى أبلغها بعدم ذهابى إلى المدرسة هو عم أحمد . ومن العجيب أنني في هذه السن قدرت له ما فعل وشكرته في نفسى ، فما كان يبغي إلا مصلحتى من وجهة نظره ، وبحث عنه فقيل لى إنه ذهب إلى البلد هو وأسرته الكبيرة وكلهم من بلدتنا غزالة . ولكنه كان يقيم مع زوجته وأولاده بيتنا بالعباسية بحجرة بالدروم ، وكانت حجراته دائما غاية في النظام والنظافة .. فقد كان هو دائما حسن الهندام نظيفا وكذلك زوجته أم زكية التى أَرْضَعْنِي على ابنها عبد العظيم . وكثيرا ما كنت أزورها في حجرتها بالدروم ، بل كثيرا ما كنت أتناول طعامى في

هذه الحجرة .

طالت غيبة عم أحمد بالبلدة وهمس لى سائقنا الذى كان من البلد أيضا
أن عم أحمد لن يعود .

— لماذا ؟

— لأنه قدر أنك ستكون غاضبا عليه .

ودهشت من إخلاص هذا الرجل .. لقد وازن بين بقائه فى عمله
الذى هو مورد رزقه الوحيد وبين أن يغمض عينيه عن تخلفى عن
المدرسة ، الأمر الذى قد يؤدى إلى عدم فلاحى كما يعتقد ، فأبلغ والدتى
بأمرى وترك عمله وتوكل على الله . وقد كان لصيقا بأبى فقد كان خادمه
الخاص ، وكان يسافر معه إلى أوروبا ، ويعرف كيف يريجه ويلبى كل
طلباته دون أن يطلبها .. فقد قضى حياته كلها مع أبى هو وأبوه كذلك
وأقاربه جميعا يعملون فى الأرض عند أبى .

سارعت فطلبت عم أحمد فى غزالة بالتليفون ، وطبعا لم يكن بيتنا
هناك ، ولكنى طلبت من الذى أجابنى بالبيت أن يناديه لينتظر منى مكالمه
وكلمته .

— ماذا يا عم أحمد .. لماذا لم تأت ؟

فقال فى صوت به آثار ضحك :

— أتريدنى أنت أن أجيء ؟

— طبعا .

— بكرة سأتى .

وأرجو الله أن أكون قد أكرمت هذا الرجل على قدر ما شهدت من

تضحيته وجهه وإخلاصه لنا .

في مدرسة فاروق بدأت رحلتى مع الملاحق ، فكنبت دائما أنتقل من السنة إلى الأخرى بملحق حتى حصلت على شهادة الثقافة ، وهى تعطى لمن يتجاوز الامتحان في السنة الرابعة الثانوية ، وهى السنة السابقة على شهادة التوجيهية التى أصبح اسمها الثانوية العامة .

وقد كان يوم حصولى على شهادة الثقافة يوما مشهودا في حياتى .. كنت في ذلك اليوم أترقب ظهور مقالتي الثانية في مجلة الثقافة التى كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر وهى أعظم لجنة أدبية عرفها تاريخ مصر .. فقد كانت تضم عمالقة الأدب جميعا بلا استثناء .

ومع أننى كثيرا ما رويت كيف نشرت أول مقالة لى في حياتى إلا أننى أعتقد أننى لن أستطيع أن أقدم إليك هذا الكتاب دون أن أذكر بداية حياتى مع الكتابة . وأنا قبل كل شيء وبعد كل شيء كاتب ، وفي العام القادم أكون قد قطعت من عمري خمسين عاما في الكتابة .

كنت طالبا في الثقافة — السنة الرابعة الثانوية في مدرسة فاروق الأول الثانوية — وكان يدرس لنا اللغة العربية أستاذ طيب اسمه الأستاذ ضاحى ، كتبت له موضوع إنشاء استعملت فيه كلمة تساءل فيما أذكر ، فإذا به يضع تحتها خطأ ويقول لى — تساءل على وزن تفاعل ، وتفاعل لا تكون إلا في تبادل الشيء بين شخصين فاستعمالك لها غير صحيح .

وعجبت من هذا الذى يقول . فما إن ذهبت إلى المنزل حتى هرعت إلى القاموس وما لبثت أن تبين أن الأستاذ أخطأ خطأ فادحا ، وكان خطأ الأساتذة في ذلك الحين كبيرة من الكبائر . كتبت كلمة عنوانها

تصحیح أوراق . وكان الأستاذ الشاعر العظيم العوضي الوكيل قد عرف
أبى وعرفنى بصديق امتدت صداقتى الوطيدة به حتى اختاره الله إلى
جواره هو الأستاذ عثمان نويّة . وكان والد عثمان نوية الذى كان يعمل فى
ذلك الحين مدرسا بمدرسة خليل أغا زميلا للشاعر العوضي الوكيل شيخا
معصما ، وكان والده زميلا لأحمد بك أمين الذى كان فى ذلك الوقت
عميدا لكلية الآداب .. وأديبا من أدباء الصدارة فى العالم العربى ، وكان
قبل ذلك زميلا لوالد عثمان نوية فى مدرسة القضاء الشرعى . وكان أحمد
بك أمين يعتبر نفسه والدا روحيا لابن زميله عثمان نوية .

قرأ عثمان نوية الكلمة الصغيرة التى كتبها عن خطأ الأستاذ وقال
سأعرضها على أحمد بك أمين .

وانتظرت عودة عثمان من زيارة أحمد بك أمين بصبر نافذ . فقد كنت
فى السادسة عشرة من عمرى وكان نشرى بمجلة الثقافة التى كانت تحتل
هى وأختها الرسالة مكان الصدارة فى الحياة الأدبية أمرا يفوق كل
أحلامى .

وعاد عثمان نويّة ، وقال : إن أحمد بك رضى عن الكلمة وسينشرها .
ولم أصدق ورحت أسأل عثمان عن تفاصيل ما دار بينه وبين العميد
الجليل ، فقال : إنه قرأها وسأل :

— هل هى لمدرس زميلك ؟

فقال عثمان فى سرعة بديهة :

— بل هى لصديق محام .

ولم يجرؤ أن يصارحه أنها لطالب فى الثقافة . ونشرت الكلمة ، وكان

زملائي في مدرسة فاروق يقرأون الثقافة والرسالة ويهتمون بالأدب ، حتى إننا أنشأنا لأنفسنا مكتبة خاصة في الفصل يضع فيها التلاميذ كل الكتب التي يشترونها في دولا ب أحضرته أنا من منزلنا ، وتظل الكتب في الفصل طوال العام الدراسي ، ويسترد كل تلميذ كتابه بعد أن يكون الفصل كله قد قرأه .

ولم أكن أخبرت أحدا من زملائي شيئا عن كلمتي التي أرسلتها للثقافة ، فكانت المفاجأة مذهلة وعرف الزملاء أنني صاحب الكلمة على الرغم من أنني وقعت بها بتوقيع « تلميذ قديم » وتبادل تلاميذ المدرسة كلها وأساتذتها أيضا قراءة الكلمة . واستدعاني نجيب بك هاشم رحمة الله عليه وطلب إليّ في لطف وكياسة ألا أهيّن أساتذتي . وأذكر أنني قلت له ما دمت أملك قلما فلا يستطيع أحد أن يظلمني ، ولك أن تقدر كبر هذه الكلمة من صبي يافع ما زال تلميذا بالثانوي ، ولم تنشر له إلا كلمة صغيرة بدون توقيع . وحتى يومنا هذا كلما ذكرت هذه الكلمة تأكد عندي أن الغرور لا يكون إلا مع المبتدئين ، وأنه يتلاشى ويتخافت ويذوب كلما كبر المرء وبلغ مبالغ النضج .

كان من الطبيعي بعد أن نشرت الكلمة أن يصارح الأستاذ عثمان نويّة أحمد بك بأن الكاتب تلميذ بالسنة الرابعة الثانوية ، وطلب أحمد بك أن يلقاني . وذهبت إليه وكانت بداية تلمذة مني للأديب العملاق ، وقد طلب إليّ أن أقرأ بعض كتب التراث وسمي لى أسمائها ، وسارعت إليها وقرأتها جميعا ووجدت في قراءتها متعة عظيمة أذكر منها على سبيل المثال كتاب العمدة لابن رشيق وكتاب الكامل للمبرد وغيرهما وغيرهما وقد

جعلنى هذا أقرأ كتاب الأغاني ، ولم أستطع أن أكمله إلا حين أهدى إلى عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين كتاب الأغاني مختصرا ومرفوعا منه العنونة ، الذى حققه هو والأستاذ إبراهيم الإييارى ، وقد قرأت هذا الكتاب أكثر من مرتين أو ثلاث .

وأعطيت أحمد بك أمين مقالة أخرى عنوانها « شعراء مغمورون » وكتبت فيها عن الأستاذ أحمد القرعيش والأستاذ توفيق عوضى أباطة . ومالى لا أذكر لك ما اخترته لكل من الشاعرين فى هذه المقالة ؟ أما الأستاذ أحمد القرعيش فقد أخذت له هذه الأبيات :

قالت : أحبُّك صادق ؟ قلت الدلائل قاطعات

قالت : وعهدك ؟ قلت : باق ما رعت عهدي الحياة

قالت : وحبى ؟ قلت : فصل مثلته الغانيات

قالت : وعهدى ؟ قلت : ذاك هو الأمانى الكاذبات

ضحكت وقالت : هكذا من قبلك العشاق ماتوا

أما أبيات توفيق العوضى فقد كانت خطابا منه إلى المستشار الأديب المحقق جمال الدين بك أباطة عم الشاعر العملاق عزيز باشا أباطة ، وفى الأبيات يشكو توفيق إلى جمال بك ابن أخيه أنه أرسل إليه خطاب تحية فلم يرد عليه . تقول الأبيات :

جمال الدين والدنيا سلاما يضوع شذى كأنفاس الخزامى

وبعد فهل أتناك حديث قوم نكلمهم فيأبون الكلاما

بعثت إلى عزيز القول شعرا أحياه فما رد السلاما

فإن يك أكبر الشعراء طرا وأعظمهم وأسماهم مقامما

فقد نادى إليه الناس موسى وناجى العبد من خلق الأناما
وبنت التمل كلمها نبى وبادها المحبة والوثاما
فلست أقل من نمل ضعيف وليس أجل من ملك تسامى
وكان إعطائى المقالة لأحمد بك أمين مواكبا فى الزمن مع فراغى من
الامتحانات واستعداد منزلنا للذهاب إلى رأس البر للمصيف . فقد كانت
الحرب العالمية على أشدها ، وانتقل المصطفون من الإسكندرية إلى رأس
البر .

وذهبنا إلى رأس البر ومكثت أترقب ظهور المقال ، وقد كنت لا أطيق
أن أبحث عنها — مجلة الثقافة — مع بائع الجرائد ، بل كنت أستبق الزمن
وأذهب إلى شارع النيل فى رأس البر أنتظر المركب الذى كان يأتى
بالصحف وأشتري المجلة . ولكنى لا أجد بها المقالة فتضيق بى الحياة .
وأحسب اليوم أن انتظارى لظهور المقال كان يؤزنى أزا لم أشعر به فى
انتظار نتيجة شهادة الثقافة . وكنت قد أخبرت أبى أننى أعطيت مقالة
لأحمد بك أمين وكان يشعر بحزنى كلما ظهر عدد من مجلة الثقافة وليس
به مقالتى .

حتى كان ذلك اليوم المشهود الذى بدأت به هذا الحديث إليك . فى
ذلك اليوم ذهبت أستحم فى البحر ، وطبعا نزلت إلى البحر بدون نظارة
النظر التى كنت قد بدأت لبسها قبل هذه الفترة بستتين تقريبا ، وأنا بها
أرى حتى السطر الأخير من اللوحة بدرجة ٦/٦ ، وبغيرها يكون نظرى
ضعيفا لا أستطيع أن أحدد الأشياء البعيدة .

وفى البحر استطاع بصرى أن يرى عن بعد رجلا مسنا يحترق بقرعتين

ليعيناه على البقاء طافيا على سطح الماء ، ولا أدري لماذا اقتربت من هذا المسن ربما لأننى منذ طفولتى أحس حنيننا لكبار السن . وربما لأننى عجبت من استعمال القرع المجفف للطفو وكانت العجلات هى المستعملة فى هذا الغرض .

وفوجئت حين اقتربت أن هذا الرجل لم يكن إلا أستاذنا العظيم أحمد بك أمين الذى لقينى أجمل لقاء ، وسألته عن مصير مقالتي فقال لى شيئا لم أكن أتوقعه قط ، قال إنهم لم يشاءوا أن ينشروا شيئا عن عزيز بك أباطة — ولم يكن قد نال الباشوية بعد — وأنهم أرسلوا إليه خطابا يستأذونه فى نشر أبيات توفيق العوضى عنه . وقد أعجبت كل الإعجاب بمنطق المجلة وبخلق المشرفين عليها ، وقلت لأحمد بك أمين إننى أستطيع أن أرسل أبياتا أخرى غير هذا . فقال « يكون أحسن » . وملأت نفسى الفرحه ، وخرج أحمد بك من البحر وتبعته أنا ذاهبا إلى عشتنا وأخبرت أبى بسبب تأخير نشر المقالة ، وبعد الظهر من اليوم نفسه ذهبت إلى مسرح برأس البر وحجزت لنفسى تذكرة لمشاهدة عميد الفن الكوميدي فى مصر والشرق نجيب الريحاني . وعند عودتى وكانت الشمس لم تغرب بعد ، وإثما تمل إلى الغروب ، وجدت عامل تلغراف يدور بين العشش تائها . سألته عنم يريد ، فقال : أريد عشة دسوق بك أباطة . قلت له : أنا ابنه ، فسلمنى برقية من قرينا المرحوم الأستاذ عبد الله عوضى أباطة الذى كان مدرسا بالثانوى ، وكانت البرقية تحمل تهنئة بنجاحى فى شهادة الثقافة . ومنذ ذلك اليوم وأنا أستبشر خيرا كلما رأيت الريحاني فى السينما أو فى التلفزيون . ذهبت فى اليوم نفسه إلى عشة أحمد بك أمين ووجدت عنده

العلامة القانوني العظيم السنهوري باشا . وسلمت أحمد بك مقالة أخرى فيها أبيات لتوفيق غير هذه التي أوقفت النشر .

وهكذا كان هذا اليوم يوما مشهودا في حياتي كما ترى . حدث بعد ذلك أن رافقت أبي إلى بلدتنا غزالة ، وكانت المقالة قد نشرت ، فوجدت الأستاذ القرعيش قد نظم أبيات تحية لي سأذكر البيت الأول منها فقط ، لأنها تؤرخ الفترة جميعها . يقول في مطلع الأبيات :

نال الثقافة وازدهى براعه صدر الثقافة
أما الأبيات الأخرى فأخجل أن أذكرها .

* * *

في غمرة حديثي عن تلك المرحلة لم أذكر أن أبي تولى الوزارة لأول مرة في ٢٦ يونية سنة ١٩٤١ وكنت في السنة الثالثة الثانوية ، وكان توليه الوزارة قبل تاريخ مولدي بيومين . وقبل أن يتولى أبي الوزارة كان حزب الأحرار قد رشحه لرياسة مجلس النواب بينما رشحت الهيئة السعدية أحمد ماهر باشا ، وكان رئيس الوزارة المرحوم حسن صبري باشا . وقصة هذا الرجل مع أبي عجيبة .. فقد حدث في سنة ١٩٣٨ أن أبي كان بصفته سكرتير عام حزب الأحرار يقوم بإعداد أسماء مرشحي الحزب في الانتخابات وكان رئيس الوزراء محمد محمود باشا ، ولم يشترك أبي في الوزارة ، وكان هذا موضع دهشة كبرى من الناس ألا يشترك سكرتير عام الحزب في الوزارة ، ولكن محمد باشا اعتذر له اعتذارا شديدا ، وجد أبي نفسه مضطرا أن يقبله لما لمحمد باشا محمود من مكانة خاصة في نفسه . وبينما أبي مشغول بإعداد الانتخابات كلّمه حسن باشا صبري في التليفون

وكان في ذلك الحين وزيراً في وزارة محمد باشا ، وكان مقرباً من الإنجليز ، وطلب إلى أوى أن يضع أحد الأسماء مرشحاً في دائرة معينة ، ولكن أوى اعتذر بأن هذه الدائرة بها عضو قديم في الحزب ، ولا يستطيع أن يتخطاه ، فإذا بحسن صبرى يقول لأوى :

— أتناقشنى ؟

فوضع أوى سماعة التليفون في وجهه .

وبعد ذلك ببضعة أشهر حدثت في الوزارة أزمة استدعت إخراج وزير الزراعة من وزارته . وكان مجلس الوزراء مجتمعاً حين قال محمد باشا للوزراء إنه مضطر أن يفض الاجتماع لأنه على موعد مع الملك ليوقع منه مرسوم تعيين وزير الزراعة . وسأل الوزراء :

— من الوزير ؟

وقال محمد باشا :

— إنه برلنتة (أى شخص من الماس) .

— من ؟

— دسوقى أباطة .

فإذا حسن صبرى باشا يقول :

— إذا دخل دسوقى أباطة الوزارة من هذا الباب ، فسأخرج من الباب

الآخر ؟

وهكذا لم يعين أوى وزيراً في وزارة محمد باشا محمود ، وظلت الوزارة بغير وزير زراعة حتى استقالت .

وجاءت بعدها وزارة مستقلة يرأسها على باشا ماهر لم يشترك فيها

(لمحات من حياتى)

أحزاب .

ثم ألف بعد ذلك حسن صبرى الوزارة ، وكان طبيعيا ألا يشترك أبى فى وزارته .

ولعل القارئ يدهش أن أبى رغم هذا الذى فعله معه حسن باشا صبرى كان دائم المديح له فى العلن ، ولنا نحن أبناءه المقربون إليه فإننى لم أجد أحدا فى العالم ولا فى التاريخ يفصل بين الحق وبين مشاعره الشخصية ، كما كان أبى يفعل .

وبهذه المناسبة أذكر لأبى قصة جديدة بأن تروى . كان المدرس الخاص الذى يدرس لى مادة الرياضة على صلة وثيقة بأسرة وزير وفدى كبير ، وكنت خليقا أن أذكر اسم الأستاذ لولا خشيتى أن يكشف اسمه عن شخصية الوزير الوفدى ، وهو أمر لا أقبله فإننى إن فعلته أكون بهذا قد خرجت عن النهج الذى انتهجه أبى والذى سيتضح لك من هذه القصة . جاء أستاذ الرياضة وطلب إلى أبى أن يحدد موعدا ليلقاه فيه أخو الوزير الوفدى الكبير . وجاء الأخ والتقى بأبى ، وإذا به يقدم أوراقا لأبى تثبت أن الوزير الوفدى يأكل أموال إخوته ويغتصبها لنفسه ، وطلب الأخ إلى أبى أن ينشر هذه الوثائق فى جريدة السياسة التى كان يصدرها حزب الأحرار الدستوريين ، وإذا بأبى يقول له :

— يا ابنى نحن لا نحارب خصومنا السياسيين بالإيقاع بينهم وبين إخوتهم وأسراتهم ، فهذه أمور لا تتصل بالسياسة الشريفة . أنا لا أعرف أذاك معرفة شخصية ولكننى مستعد أن أدعوه إلى بيتى وأدعوك أنت وإخوتك معه وأصفى ما بينكم من خلافات فى جلسة أسرية . أما أن

— ٣٥ —

أنشر هذه الخلافات الخاصة فليس من أخلاقنا .
وانصرف أخو الوزير الوفدى ومعه أوراقه .
ونعود إلى حسن باشا صبرى ..

وحدث أن اختلف السعديون مع حسن باشا صبرى ، وتركوا
الوزارة ، وجاء موعد انتخابات الرئاسة لمجلس النواب ، وكان رئيس
المجلس أحمد باشا ماهر ، وكان لا بد أن تجرى الانتخابات حسب النص
الدستورى ، ورشح حزب الأحرار أبى كما قدمت ، وكان نجاح أبى
مرجحا .

وفى أثناء حملته الانتخابية وقبل موعد الانتخاب بيومين ، كنا
جالسين مع أبى أنا وخالى على واثان أو ثلاثة من الأصدقاء وكان باب
المكتب مغلقا ، ففوجئنا بالباب يفتح بقوة ، وتشريفاتى رئيس الوزراء
واقفا به ، وكان اسمه الأستاذ ميشيل ساويرس وكان معروفا بأدبه الجم ،
وكان يعمل مع كل رؤساء الوزراء لأنه لم يكن له شأن بالسياسة مطلقا
ولنما كان خبيرا بشئون وظيفته . صاح ميشيل ساويرس فى دربة ومران :
— دولة رئيس الوزراء .

وقام أبى إلى بهو المنزل وتبعناه ، ورأينا حسن باشا صبرى يحتضن أبى
وهو يقول :

— أهلا سعادة رئيسنا العظيم .

ورحب به أبى ودخلا معا إلى حجرة الاستقبال ، وأغلقت عليهما
الأبواب ، وبقي معنا فى المكتب ميشيل ساويرس نتحدث فى أى شىء
ما عدا السياسة .

وطالت الجلسة بين أى وبين رئيس الوزراء . وأخيرا خرجا وودع أى رئيس الوزارة وشملنا الحبور . فلو لم يكن نجاح أى مرجحا ما زاره رئيس الوزارة لتصفو علاقته به . فقد أدرك أن الأمور لن تستقيم إلا إذا كان رئيس مجلس النواب على علاقة طيبة مع رئيس الوزراء .

وجاء موعد الانتخابات ، وبدأ اليوم بداية طبيعية ، وقد كان لافتتاح البرلمان فى ذلك العهد مراسم رائعة .. كان الملك يركب عربة تجرها خيول والعربة مفتوحة ، وتسير فى طرقات القاهرة من عابدين إلى مجلس النواب ، ويكون رئيس الوزراء بجانب الملك فى هذا الموكب تحف بهما الخيول يركبها الحرس الملكى ، ويتقدم الموكب الموسيكالات . وتقف جموع الشعب على الصفيين تصفق وتهلل — شأنها دائما — حتى يصل الموكب إلى دار البرلمان وتنطلق المدافع مؤذنة بوصول الموكب . ويدخل الملك إلى قاعة مجلس النواب . ويجلس بين تصفيق الأعضاء على كرسى العرش بالمجلس ، الذى لم يعد موجودا الآن بالقاعة وإنما انتقل إلى متحف مجلس النواب . وبعد ذلك يبدأ رئيس الوزراء فى إلقاء خطبة العرش ، وكان المفروض أن الملك هو الذى يلقي خطبة العرش ولكن لأن الدستور النيابى بدأ فى عهد الملك فؤاد الذى كان لا يجيد العربية ، فقد استقر العرف الدستورى على أن يلقي رئيس الوزراء خطبة العرش باسم الملك فيقول : « وستعمل حكومتى » لأنه يتكلم بلسان الملك لا بلسان رئيس الوزراء .

بدأ حسن باشا صبرى يلقي الخطبة ، ولكن فجأة يسقط حسن باشا صبرى على الأرض مصابا بأزمة قلبية لا تمهله دقائق ويلقى ربه ، ويقوم

الملك عن عرشه إلى حجرته بالمجلس ويعلن تأجيل افتتاح البرلمان لأول مرة في التاريخ ولآخر مرة أيضا ، فإن هذا الحدث ليس من شأنه أن يتكرر ويموت رئيس الوزراء وهو يلقي خطاب العرش ، بل أحسب أن هذا الذى وقع لم يقع فى أى بلد آخر على مدى تاريخ الحياة النيابية فى العالم . وألف الوزارة بعد حسن صبرى المرحوم حسين سرى باشا ، ولم يشرك فى الوزارة رشوان محفوظ باشا الذى كان طامعا فيها كل مطمع . ويغضب رشوان محفوظ فيطلب من أنصاره من نواب الصعيد ألا ينتخبوا مرشح الحزب الذى ينتمى إليه — والذى كان أبى — رغم صداقة رشوان باشا لأبى ، فينسلخ من أنصار أبى أكثر من سبعة عشر صوتا . ويصنع الصنيع نفسه حفنى محمود شقيق محمد باشا محمود للأسباب نفسها التى أغضبت رشوان محفوظ . وكان أنصار حفنى محمود حوالى عشرة نواب ، وهكذا يفقد أبى قرابة خمسة وعشرين صوتا ولم يكن محتاجا إلا لأحد عشر صوتا لينجح .

وهكذا شاء الله أن يسىء حسن صبرى باشا إلى أبى حيا وميتا . حيا حين رفض أن يزامله فى الوزارة ، وميتا حين تسبب موته فى انسلاخ ما يقرب من خمسة وعشرين صوتا عن انتخاب أبى لرئاسة مجلس النواب . كان محمد باشا محمود على قيد الحياة فى أثناء هذه الانتخابات ، ولكنه كان مريضا لا يترك غرفته . وقد زاره أبى وأبدى الرجل العظيم أسفه لتفتت كلمة الحزب . وكان أكبر أسف الزعيم النبيل الذى اشتهر بهذا اللقب ما فعله أخوه حفنى وما فعله قريبه رشوان محفوظ . ولكن أبى قال له ليخفف عنه سخطه على الحزب : إن الانتخابات قد جرت فى غيبة

الزعيم ، وحين تسترد صحتك إن شاء الله ستعود وحدة الحزب وسيسترجع تماسكه .

وشاء الله أن يختار محمد باشا محمود إلى جواره ، وانقسم الحزب حول الرئيس الجديد .. حول من يختاره خليفة للزعيم الراحل . منهم من كان يؤيد مصطفى باشا عبد الرازق وعلى رأسهم أحمد باشا عبد الغفار لصلته الوثيقة بأسرة عبد الرازق ، وبحجة أن هذه الأسرة قد ضحت باثنين من زعمائها في سبيل الحزب .

والفريق الآخر كان يؤيد الدكتور محمد حسين هيكل باشا مرتبياً أنه أكثر خبرة بالحياة السياسية من مصطفى باشا الذي عرف عنه العزوف عن المجادلة أو المصالحة .

وأنت ترى كم كان كل مرشح من المرشحين يمثل قمة في الثقافة العربية وواجهة مشرقة مضيئة لمصر حتى يومنا هذا .

على أية حال رأى الحزب أن يلجأ إلى عبد العزيز باشا فهمي يرحوه أن يقبل الرئاسة لفترة قصيرة حتى يستقر الحزب على واحد من المرشحين العلميين .

وقبل عبد العزيز باشا رغم ضعف صحته ، وأصبح رئيساً للحزب ، وانتخب هيكل باشا نائباً لرئيس الحزب .

حين أصبح عبد العزيز باشا فهمي رئيساً للحزب فإن أول ما قاله لأبي إنه لم يقبل رئاسة الحزب إلا ليرفع الظلم الذي أوقعه الحزب على أبي ، مرتبياً أن بقاءه بعيداً عن الوزارة طوال هذه المدة يدل على أن الحزب لا يعرف كيف يقدر رجاله . وكان عبد العزيز باشا يحب أبي غاية الحب ،

وأغلب الأمر أن ذلك الحب يرجع إلى تقارب أخلاق الرجلين تقارباً لصيقاً ، فقد كان كلاهما لا يخشى في الحق لومة لائم ولا يمنعه شيء عن محاربة الظلم وعن الانتصار للعدالة والشرف مهما تكلفا في سبيل ذلك من خسائر ، مادية كانت هذه الخسائر أم كانت أدبية ، وكان عبد العزيز يضع يده على صدر أبنى ويمررها عليه وهو يقول هذا الصدر كله إخلاص .. كله إخلاص .. ويكررها .

وكنْتُ أزور عبد العزيز باشا فهمي في رفقة صديق عمرى عبد الفتاح الشناوى فكان يقول : « مفيش زى أبوك في كل السياسيين دول ، مفيش زى أبوك » .

وأهداني مرة كتابه عن الحروف اللاتينية فكتب الإهداء « لسيدى ثروت بك أباطة » وكدت أدوخ من هول الكلمة صادرة عن هذا الجبل الشاخ من العلم والسياسة والقانون والوطنية . وكنْتُ ذاهباً في ذلك اليوم إلى عمى عزيز باشا أباطة وكانت معى تجارب روايته العباسية ، فلم أترك حقيقتى في السيارة وإنما صحبتها معى ، وقلت لعمى عزيز :

— تصور أن عبد العزيز باشا فهمي كتب لى إهداء يقول فيه كذا ؟ !
ولم يصدق عزيز باشا وقال لى :
— الفضاء واسع .

وهى عبارة تقال حين يسمع الإنسان شيئاً يتصور أنه « فشر » ، ففتحت حقيقتى وأنا أقول :

— ولماذا ؟ لا واسع ولا ضيق . هاك الكتاب .
وقرأ عزيز باشا الإهداء وبدأ عليه الدهول الذى أصابنى .

نعود إلى عبد العزيز باشا فهمى وأبى والوزارة . فوجئ أبى بعبد العزيز باشا فهمى يقول له : حسين سرى يعتمد على حزب الأحرار وحده فى المجلس ولا يمثل الحزب إلا خمسة وزراء فقط .
وبجراحة عبد العزيز باشا فهمى المعروفة قابل حسين سرى وأصر أن يمثل الأحرار الدستوريين فى الوزارة سبعة وزراء ، وتم التعديل فعلا فى ٢٦ يونية سنة ١٩٤١ ودخل أبى وزيرا للشئون الاجتماعية ورشوان محفوظ وزيرا للزراعة .

واستقبل تعيين أبى وزيرا برنة فرح كبرى فى الشرقية وفى مصر جميعها ، وأذكر أن مصورا فتوغرافيا كان فى شارع من أهم شوارع القاهرة وضع صورة أبى ورشوان باشا فى معرض صورته الذى يطل على الشارع ، وكتب تحتها بخط أنيق الوزيران الجديدان .
بقيت هذه الوزارة فى الحكم قرابة شهر ، وكانت الشرقية تقيم حفل تكريم لأبى بمناسبة توليه الوزارة وكان اليوم المحدد لهذا التكريم هو اليوم الذى استقالت فيه الوزارة . ولم يشأ أبى أن يذهب إلى الزقازيق وقد استقالت الوزارة ، وكان سبب الاستقالة أن سرى باشا كان قد أزال الخلافات التى كانت بينه وبين الحزب السعدى ، وتم الاتفاق بينهما على أن يشارك الحزب السعدى فى الوزارة ويمثله فيها خمسة وزراء ، فكان طبيعيا أن تستقيل الوزارة ويعاد تشكيلها وينقص عدد الوزراء من حزب الأحرار الدستوريين إلى خمسة وزراء بدلا من سبعة . وكان طبيعيا ألا أذهب أنا أيضا إلى الزقازيق لحضور الحفلة فقد كنت يومها لا أدرى إن كان المكرم أبى سيظل فى الوزارة أم سيخرج منها .

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر اليوم دق جرس التليفون في منزلنا وكان أبى نائما في القيلولة . فما كان رحمه الله يعنيه أن يبقى في الوزارة أو لا يبقى . فقد كانت شخصيته أكبر من أى منصب . رفعت سماعة التليفون وجاءنى الصوت على الطرف الآخر :

— منزل معالى الأستاذ إبراهيم بك دسوقي أباطة ؟

— نعم .

— معالى الوزير موجود ؟

— من يريده ؟

— مجلس الوزراء .

فلم أشأ أن أخبره أن أبى نائم ، وإنما تجرأت وقلت للمتحدث :

— نعم موجود .

وتجرأت مرة أخرى وأدخلت التليفون إلى أبى في قيلولته ، وكان المتحدث يستدعى أبى للذهاب إلى مجلس الوزراء في الساعة السادسة . ووعد أبى بالحضور ، وطلب منى أن أتركه ليكمل قيلولته وكأن شيئا لم يحدث . كم كان عظيما لا يهزه عاصف من فرح أو غيره .

وعاد أبى إلى الوزارة في وزارة الشؤون الاجتماعية ، وخرج اثنان من وزراء حزب الأحرار الدستوريين ، من بينهما رشوان باشا محفوظ الذى عين قبل شهر من الوزارة الجديدة ، وكانت هذه آخر مرة يشترك فيها في الوزارة .

بقيت هذه الوزارة في الحكم حتى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الشهيرة ، حين حاصر الإنجليز القصر الملكى وطالبوا بتعيين النحاس باشا رئيسا

للوزارة أو يعزلوا الملك فاروق . وكان ما كان من اجتماع زعماء الأحزاب ورؤساء الوزارات السابقين بقصر عابدين ، وعرض المجتمعون على النحاس باشا أن يؤلف وزارته مؤلفة من الأحزاب لمواجهة الحالة الخطيرة التي تمر بها البلاد ، فرفض هذا العرض بكل إصرار ، وصاح أحمد ماهر باشا في وجه النحاس بكلمته الشهيرة إنك تأتي إلى الحكم على أسنة الحراب الإنجليزية ، فلم يأبه النحاس بهذا وخضع الملك لتهديد الإنجليز وأصدر مرسومه بتأليف الوزارة .

ولا أنسى في اليوم التالى كنت أركب السيارة الخاصة ، لا سيارة الوزارة طبعاً مع أبى ، وقلت له : كيف سيواجه النحاس الجماهير بعد هذا ؟ وفى ذكاء السياسى العملاق قال لى : سيقول : لقد أنقذت عرش مصر .

وما لبث النحاس أن قال هذه الأضحوكة ، وكأن أبى كان فى عقله حين توقع أنه سيدعى هذا الادعاء . والغريب أن الجماهير الوفدية تجمعت حول مجلس الوزراء لتهنئ النحاس ووزارته القادمة بالحرب الإنجليزية ، وفى أثناء تجمعها حضر إلى مجلس الوزراء السير مايلز لميسون ، وكان ضخماً الجثة بصورة غير مألوفة ، فقد كان طويل القامة إلى حد بعيد كما كان بالغ السمن . والعجيبة أن الجماهير الوفدية حملته على أكتافها وهتفت باسمه ، ولم تشعر بالهوان وهى تحمل المندوب السامى البريطانى على أكتافها بعد أن زلزل عرش مصر . وكان الملك إلى ذلك الحين محبوباً من الشعب حبا لم يحظ به ملك . وقد استطاع بغائه الشديد أن يبدد هذا الحب بطريقه العرييد الأبله الذى اختاره لنفسه . وأعتقد اعتقاداً يقرب من اليقين أن أمه الملكة نازلى كان لها أثر كبير فى اضطراب عقله ومسلكه جميعاً بأفعالها المخزية التى كانت ترتكبها ، والتى انتهت بزواجها من أحمد حسنين باشا ، مما كان له أسوأ الأثر فى نفوس الناس ، ومن باب أدق فى

نفسية ابنها الملك . وما فعلته بعد ذلك أدهى وأمر .
أعلنت وزارة النحاس حل البرلمان وإجراء انتخابات . وطلب
حزب الأحرار مقابلة النحاس باشا للاتفاق على الأسس التي سيدخلون
عليها الانتخابات . وتحدد موعد اللقاء واختار الحزب أبى وأحمد باشا عبد
الغفار ليمثلا الحزب فى مفاوضاته مع النحاس باشا ، وكان اللقاء طريفا ،
ولذلك فإنه لم يفر من ذهنى .

قال لهما النحاس باشا :

— الانتخابات حرة ، ولكم أن تقولوا ما تشاءون على ألا تذكروا
شيئا عن حادث ٤ فبراير ولا تهاجموا الإنجليز نظرا للظروف التي نمر بها ،
ولا تذكروا شيئا عن زوجتى ، ولكم بعد ذلك أن تقولوا ما تريدون .
ودهش أبى ولم يتكلم ، وتكلم أحمد باشا عبد الغفار قائلا فى غضب :
— وماذا بقى أن نقوله ضد المرشح الآخر ؟ أنقول له أبويا أحسن من
أبوك ؟ أم نقول له وشى أحلى من وشك ؟

ولم يرد النحاس وخرج أبى وأحمد باشا دون أن يتفقا مع النحاس ،
وعرفت بعد ذلك أن النحاس باشا حين روى هذه الواقعة للهيئة الوفدية
قال :

— جاءنى من حزب الأحرار معالى الأستاذ إبراهيم دسوقى أباطه
والولد أحمد عبد الغفار ..

مع أن أحمد باشا كان حاملا رتبة الباشوية عند هذا اللقاء .
وهكذا رفض حزب الأحرار والهيئة السعدية دخول الانتخابات ،
وانفرد حزب الوفد بهذه الانتخابات .

ولكن أئى كان حريصا على وجوده فى مجلس النواب ، وفى نفس الوقت لم يستطع أن يخوض الانتخابات العامة وهو سكرتير عام حزب الأحرار الدستوريين .

وهكذا ارتأى أن يدخل أخوه عبد الله بك فكرى أباطة الانتخابات ، وكان فى ذلك الحين سكرتير عام وزارة التجارة ومرشحا أن يكون وكيل وزارة . وكان الدستور يقضى أنه إذا أصبح موظف عضوا بمجلس نيابى فله مهلة ثلاثة أشهر يختار فى أثناءها بين البقاء فى الوظيفة وترك المجلس ، أو البقاء فى المجلس وترك الوظيفة .

وبعد انقضاء المدة استقال عمى عبد الله من المجلس وتقدم أئى للترشيح بالدائرة التى خلت ، ورشح الوفد ضده أحد المحامين اسمه عبد العظيم النادى رسلان . وكانت انتخابات مريرة غاية المرارة جيش الوفد لها كل جيوشه من شرطة إلى قوات مسلحة إلى تزوير على لا يتوارى ولا يخجل ، وفى هذه الانتخابات كسرت ذراع فكرى أباطة باشا فى بلدة قرية من الغار بلد المرشح اسمها كفر عوض الله حجازى . وكان من فجور الوفد أنه فى توزيع الناخبين كان يجعل البلاد المؤيدة لأئى تدلى بأصواتها فى بلاد بعيدة عنها كل البعد ، بينما يحرص على أن يجعل الناخبين المؤيدين لمرشحه يدلون بأصواتهم فى بلاد قرية غاية القرب منهم فلا يتكلفون إلا مشية هينة . أما الناخبون المؤيدون لأئى فقد كان عليهم أن يركبوا السيارات أو يتعذر عليهم الإدلاء بأصواتهم .

أما معركة كفر عوض الله التى كسرت فيها ذراع عمى فكرى فقد تجمع فيها بعض أنصار المرشح الوفدى وبأيديهم العصى الغليظة وأرادوا

أن يمنعوا ممثلى أبى من الاقتراب إلى لجنة الانتخاب فاعتدوا عليهم بالضرب دون أن يراعوا أى معنى للخلق أو قيم الوافدين عليهم .

وتمت الانتخابات ، وكان فوز أبى واضحا ، وتجمعت صناديق الانتخاب بنقطة شرطة ببلدة بردين ، وهى البلدة التى سميت الدائرة كلها باسمها ، وحرص شباب الأسرة أن يبيت فوق الصناديق يتزعمهم عمى عبد الله وقد هيا له مأمور دائرة الأمير طاهر باشا الذى يملك أبعادية فى بردين مكانا مناسبا يبيت فيه ، بينما لازم شباب الأسرة الصناديق . وحاولت الشرطة وقوات من الجيش أن يخرجوهم من النقطة فكشفوا عن أسلحة مرخصة يحملونها .

وكلم مدير الشرقية أبى فى غزالة ، وكنت بجواره . وقال المدير :

— إننا نرجو أن تأمر بالجلاء عن نقطة بردين .

فضحك أبى وهو يقول للمدير :

— لا أستطيع ، فإننى إن طلبت هذا المطلب من شباب أسرتى فلن

يقبلوه .

وسلم المدير أمره إلى الله ، وظل شباب الأسرة مع الصناديق حتى تم فرزها ، وكنا واثقين أنه إذا تخلى الشباب عن الصناديق فإن الوزارة ما كانت لتخجل أن تحل مكانها صناديق أخرى لصالح مرشحها . وتم الفرز ونجح أبى نجاحا باهرا ، وأحست الوزارة أن الشعب غير راض عنها ولكن لا يهتم ما دامت باقية فى دست الوزارة

* * *

حين عاد أبى إلى مجلس النواب كان معارضا عنيفا ، ولكن الأغلبية الساحقة كانت وفدية وكان مكرم عبيد باشا قد انشق عن الوفد وكون حزب الكتلة وأصدر جريدة للحزب . وفى ذلك الحين كتب كتابه الشهير المعروف باسم « الكتاب الأسود » وكانت الأحزاب المعارضة تتولى توزيع هذا الكتاب ، وكانت نسخ منه كثيرة توزع من بيتنا . والكتاب جدير بأن نقول عنه إن أعظم التهم فيه لا تساوى شيئا بالنسبة لأيسر ما ارتكب فى عهد الناصرية . فقد كان أعظم ما فيه اعتقال بعض الزعماء السياسيين ، وقد كانوا يعتقلون فى بيوت مريحة ويلقون كل رعاية وعناية ، وما كان أهل هذا العصر يدرون ما يخفيه الزمان فى عهد الناصرية من اعتداء على الأعراض والكرامات والأموال والأنفس ، مع الألوان التى لم تسمع عنها البشرية من التنكيل والعذاب . ولكن على أى حال فى ذلك الحين كان الكتاب الأسود سبة فى جبين الحكم . وقد تقدم أبى باستجواب عن الاعتقالات التى تقوم بها الحكومة ، وفى نفس اليوم المحدد لنظر الاستجواب اعتقلت حكومة النحاس مكرم عبيد باشا . ووقف أبى فى مجلس النواب يندد بهذا التصرف ، وصاح بالحكومة إننا متضامنون مع كل ما فعله مكرم عبيد باشا وكل ما كتبه ، ولتفعل بنا القوى العاشمة ما تريد .. وقد علق المرحوم كامل الشناوى على هذه الخطبة يومذاك بقوله : لولا خوفى على الرجل لألقيت بنفسى من شرفة الصحفيين لأقبل دسوقى أباطة .

وعاد أبى إلى البيت ، وكنت ألتقى درسا فى اللغة الإنجليزية من أستاذى الذى كان يشرف على دراستى جميعا الأستاذ لويس مرقص ،

الذى أصبح فيما بعد د. لويس مرقص رئيس قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب . وذكر لنا أبى ما فعله بالمجلس ، ثم نادى عم أحمد وأمره أن ينقل كل نسخ الكتاب الأسود ومنشورات أخرى ضد الحكومة إلى بيت ابن عمه الأصغر الضابط عمر أباطة رحمه الله ، متوقعا أن تفتش الحكومة منزلنا فى نفس الليلة . وقد حدث أن فوجئنا بقوة من الشرطة قبيل منتصف الليل تحاصر المنزل وتقتحمه لتفتش عن الكتاب الأسود والمنشورات . ولكن أين هذا التفتيش مما فعله العهد الناصرى بعد ذلك ؟ شتان لا يقارن ما فعله النحاس بما صنعه بعد ذلك عصر الطغيان .

حسبك أن تعلم أن أبى أمسك بمسدسه ، وقال لقائد القوة : نحن فلاحون وسأسمح لك بتفتيش البيت جميعه ، ولكن لن تدخل الحجرة التى بها السيدات مطلقا .

وقبل الضابط ، فما كان أهونه من تفتيش . وانصرفوا دون أن يعتقلوا أبى وإنما قدموا له كل إجلال واحترام وتوقير .

في يوم ٧ أكتوبر عام ١٩٤٤ طلبني أبنى من حزب الأحرار الدستوريين وقال لى : إن وزارة النحاس أقيمت ، وإن أحمد باشا ماهر يؤلف الوزارة الآن فى لاطوغلى .

كانت الحرب قد أوشكت على الانتهاء ، وعرف الملك أن الإنجليز لم يعد يعينهم شأن النحاس أن يبقى فى الوزارة أو لا يبقى فأقال النحاس باشا . سارعت إلى الحزب فوجدت الجموع الحاشدة ، وكان الحزب فى عهد وزارة الوفد محاصرا بالشرطة . وقد خشى أبنى أن تعتدى الزخوف القادمة للتهنئة على القوة المحاصرة للحزب ، فاستدعى رئيس القوة وأخبره بسقوط وزارة الوفد ، ونصحه بأن ينسحب هو وقوته حتى لا يتعرض للصدام مع الجماهير القادمة للتهنئة . فراح رئيس القوة يشكر أبنى ويدعو له بطول العمر . وانسحب هو وقوته .

علمنا فى الحزب أن مفاوضات تشكيل الوزارة تواجه صعوبات سببها أن مكرم باشا عبید يصّر أن يكون عدد وزراء الكتلة مساويا لعدد وزراء الأحرار والسعديين وكان هذا غير طبيعى ، ولم يكن ماهر باشا موافقا على ذلك . وطال وقت التأليف ولغط الحاضرون فى حزب الأحرار وتناثرت الإشاعات بأسماء المرشحين وأبنى فى حجرته بعيد كل البعد عما يدور بين الحاضرين بالخارج . وقد أبى ترفعا أن يذهب إلى لاطوغلى ليشرك فى (لمحات من حياتى)

تأليف الوزارة ، مع أن هذا كان أمرا طبيعيا . فهو سكرتير عام الحزب ، والمفروض أن يشترك في تأليف الوزارة .

في هذه الليلة قمت بتجربة لا أنساها .. حلا لي أن أثبت إشاعة أن الملك هدد باستدعاء النحاس باشا إذا لم تؤلف الوزارة في وقت معقول . ولم تمر دقائق حتى طلبتني والدقي من البيت وسألتني : هل صحيح أن الملك استدعى النحاس باشا .

أدركت منذ ذلك اليوم السرعة التي تسرى بها الإشاعة وتحرف أيضا .

ووافق حزبا الأحرار والسعديين أخيرا على مطلب مكرم باشا ، وأصبحت المشكلة هي أين يجد وزراء ، فرشح المحامي سيد سليم الذي لم يعرفه أحد في ذلك الحين وقد نال رتبة الباشوية فيما بعد ، كما رشح طه باشا السباعي ولم يكن عضوا في حزب الكتلة وإنما انضم إليه ليدخل الوزارة ، وقد كان قبل ذلك يشغل منصب وكيل وزارة .

تألفت الوزارة وأسند إلى أي منصب وزير المواصلات ، ثم تقلب طوال خمس سنوات في المناصب الوزارية فكان وزير أوقاف ووزير خارجية .

ولتولية منصب وزير الخارجية قصة ، ولتركه لها قصة أكثر طرافة ، فقد طلب أحمد خشبة باشا وزير الخارجية أن يتولى منصب نائب رئيس الوزراء ، ولم يكن هذا المنصب معروفا في التشكيلات الوزارية ، فرفض طلبه واستقال . واختير أي وزير للخارجية ورشح هو رياض عبد العزيز سيف النصر المستشار وزميل دراسة أي وزير للمواصلات ، فتولى

المنصب .

ولكن ما هي إلا بضعة أشهر حتى قبض على أخى رياض بك بتهمة الشيوعية ، وهو إلهام عبد العزيز سيف النصر الذى كان فى مثل سنى ، وقد عرفته بعد ذلك بسنوات حين تزوج بابنة عباس باشا سيد أحمد . والد الشيوعى المعروف محمد سيد أحمد وخال أمينة هاتم صدقى حرم عزيز أباطة باشا . وقد قبض على إلهام فى العهد الناصرى وعذب تعذبا وصفته المحكمة التى رفع أمامها قضيته فى عصر الحرية بأنه تعذيب لم تعرفه البشرية . وأغلب الأمر أن هذا التعذيب كان السبب ربما غير المباشر فى موت إلهام دون أن تعلق به السن ، فهو فى مثل عمرى تقريبا .

وعودة إلى أخيه الذى رفض أن يبقى فى الوزارة ، وأخوه متهم بالشيوعية ، فقد تم استقالته واستطاع حزب الأحرار أن يقنع أحمد باشا خشيبة بالعودة إلى الوزارة ، فعاد إلى وزارة الخارجية ، وعاد أبى إلى وزارة المواصلات .

فى وزارة الخارجية حدثت واقعة لا بد من ذكرها . كان مرتب وزير الخارجية يضاف إليه مرتب وزير تحت بند ما يسمونه بدل تمثيل ، وإذا بأبى يرفض أن يتقاضى بدل التمثيل هذا . وناهيك بمرتب وزير فى ذلك الحين ! ولم يكن أبى واسع الغنى بدليل أن الإصلاح الزراعى لم يأخذ منه قيراطا واحدا ، وقال المسئولون فى الوزارة لأبى : معاليك ستخرج الذين قبلك والذين بعدك .

قال :

— أما الذين قبلى فلا شأن لهم بما أفعل لأنهم سبقونى فى الوزارة ، أما

— ٥٢ —

الذين بقدى فإذا كانوا قادرين فليفعلوا مثلما أفعل ، وإذا كانوا غير قادرين
فلا لوم عليهم إذا لم يفعلوا وتقاضوا بدل التمثيل . أما أنا فلن آخذ من
الحكومة نقودا مقابل الدعوات التى يحتم على منصبى أن أقيمها فى بيتى .
وأصر على رفضه .

حصلت على شهادة الثانوية العامة ، وكان اسمها في عهدنا التوجيهية في عام ١٩٤٦ ، وكان أبى يومذاك وزيرا للأوقاف في وزارة صدقي باشا التي قامت بمفاوضات صدقي بيغن ، ولم يشترك الوفد في المفاوضات واستطاع أن يثير المظاهرات الصاخبة في الجامعة قبل أن تبدأ المفاوضات . ومع أن صدقي باشا حصل من ستانجيت القائد الإنجليزي على تصريح من جانب واحد ، أن تنسحب جنود الاحتلال من القاهرة وجميع عواصم مصر لتقيم في ثكنات لها بالقنال ، إلا أن هذا لم يخفف من حدة المظاهرات في الجامعة . ولم يشترك السعديون مع صدقي باشا في الوزارة فكان يعتمد على الأحرار الدستوريين وحدهم في الفترة الأولى من حكمه .. وقد انضم شباب السعديين إلى الوفدين في الجامعة . ولعله ينبغي أن أذكر جلسة مجلس النواب التي فاز فيها صدقي باشا بالثقة رغم أن السعديين لم يشتركوا معه في الوزارة ، وكان عددهم يزيد على الأحرار ببضعة مقاعد .

في هذه الجلسة هاجم السعديون صدقي باشا هجوما ضاريا . فقد حل محل رئيسهم النقراشى باشا الذى أصبح رئيسا للوزارة بعد مقتل الزعيم العظيم أحمد ماهر باشا برصاصة خائنة ، وادعى القاتل أنه قتله لأنه كان يريد أن يدخل الحرب مع الإنجليز . وكانت حجة ماهر باشا أن الحرب

كانت موشكة على الانتهاء واشترك مصر فيها لن يكلفها شيئا ، ولكنه سيتيح لها أن تكون عضوا في هيئة الأمم وتعرض قضيتها على العالم . ولكنه قُتل ، ودخلت مصر الحرب شريكة مع الحلفاء في عهد النقراشي باشا الذي خَلَفَ ماهر باشا في رئاسة الوزارة .

ولنرجع إلى جلسة مجلس النواب . هاجم السعديون صدقي باشا وراحوا يذكرونه بالعنف الذي عرف عنه في وزارة سنة ١٩٣٠ . وظل الرجل صامتا حتى انتهى طالبو الكلمات من هجومهم ووقف العملاق العجوز يقول في ثبات ما معناه : تحدثتم عن صدقي سنة ٣٠ ولن أدافع عنه فأنا مقتنع بكل ما فعلته في تلك الوزارة . ولكن صدقي سنة ٣٠ هو نفسه الذي كان عضوا مع المرحوم أحمد ماهر باشا والنقراشي باشا في الجبهة القومية ، وهى جبهة تكونت بعد حادثة ٤ فبراير لتناهض وزارة النحاس باشا — وكان أبى وهىكل باشا من أعضائها — فذكر صدقي باشا زمالته لرعيى السعديين فيها ثم قال في حسم : « هذه الجبهة يا حضرات النواب التى كان لها الفضل في وجودكم على هذه الكراسى التى تجلسون عليها الآن » . وراح يشير بيده إلى مقاعد المجلس العتيد ، والعجيب أن صدقي باشا نال الثقة مع تحديه للأغلبية السعدية في المجلس .

حين بدأت الدراسة في الكلية كانت بداية مضطربة كل الاضطراب ، وكانت المظاهرات يومية حتى أننا لم نكمل يوما دراسيا قط . وفوجئ الطلبة بصدقي باشا في الكلية وكنت قد عدت إلى البيت ، وإنما عرفت ما دار بين الطلبة ورئيس الوزراء من حوار ، فقد قال لهم :

— ماذا تريدون ؟

— خروج الإنجليز .

— وماذا نفعل نحن غير ذلك ؟ ألا يحسن بكم أن تذكروا أنتم حتى نجد في مصر رجالا مثقفين نعتمد عليهم بعد خروج الإنجليز من مصر ! وطبعاً لم يجد الطلبة شيئاً يجادلون به منطق الرئيس العبقري ، وانصرف صدق باشا .

ولكن المظاهرات استمرت كأن شيئاً لم يحدث ، فكنا نذهب إلى الكلية ونجلس في المدرجات ، وقبل أن يدخل الأستاذ تنفجر المظاهرة ونخرج .

وما هي إلا أيام حتى أعلنت الصحف أن رئيس الوزراء إسماعيل صدق باشا سيلقى في الساعة كذا بياناً بالإذاعة حول مظاهرات الجامعة . وتجمعنا حول أجهزة الراديو لنستمع إلى بيان رئيس الوزراء الذى لم يستغرق سوى بضع ثوان قال ما معناه :

« يتدخل بعض الغوغاء بين صفوف الطلبة ويثيرون الشغب ، ولما كانت الحكومة حريصة على استتباب الأمن فسوف تعمل على ذلك بالطرق المشروعة وغير المشروعة » .

وذهبت إلى الجامعة في اليوم التالى فوجدت الحكومة قد أمرت بعودة الشرطة إلى مقارهم ، حتى أننا لم نجد شرطياً واحداً من القوات الكبيرة التى كانت تحيط بالجامعة . ودخلت إلى المدرج فلم أجد مكاناً أجلس فيه إلا بشق الأنفس ، والذين دخلوا بعدى ظلوا واقفين .

ولم تقم مظاهرة واحدة في عهد صدق باشا بعد بيانه هذا حتى تذاعب عليه زعماء مصر من المستقلين ورفضوا المعاهدة التى كانت أحسن ما

— ٥٦ —

توصلت إليه مصر في تاريخها ، والتي تفضل — لا شك — المعاهدة التي خرج بمقتضاها الإنجليز بعد ذلك بأعوام عديدة ، ويكفى المعاهدة التي خرج بموجبها الإنجليز أنها أفقدتنا السودان إلى الأبد .

وقد كان أبى متحمسا لمعاهدة صدق بيفن ، وأذكر أنه في أيام تكوين وفد المفاوضين جاء أبى إلى البيت متأخرا قليلا عن مواعده ، وجلسنا على مائدة الغداء وكان على المائدة بعض ضيوف لنا . وقال أبى :

— لقد خرجت من الوزارة .

وكان وزيرا للأوقاف في ذلك الحين ، فقلت أنا :

— إذن انضمت إلى وفد المفاوضة .

— نعم .

ولم تمض دقائق حتى دق جرس التليفون فتركت المائدة وذهبت أجيب التليفون ، وطالعتنى صوت لم يرغب عنى طبعاً :

— معالى الباشا موجود ؟

وقلت : نعم .

وأردت أن أستوثق من الصوت فقلت :

— نعم ، من يريده ؟

وجاء الصوت :

— صدق باشا .

وكان هو شخصيا المتحدث ، ولم يكن مكتبه .

وكلمه أبى ، وعدت أنا طبعاً إلى المائدة حريصاً أن أخلى غرفة المكتب

التي بها التليفون . وجاء أبى إلى المائدة وقال :

— لقد بقيت في الوزارة .

وعرفنا سر هذا التعديل بعد ذلك . فبعد أن كان الرأي قد استقر على أن يكون وفد المفاوضين من أحزاب الوزارة ، عدل عن هذا الرأي ليتكون الوفد من رؤساء الوزارات السابقين ، ومن رئيس حزب الأحزاب الدستوريين والسعديين .

ولم يغضب أي رغم ذلك ، وبعد أن أجمع رؤساء الوزارات على رفض المعاهدة حقدا منهم أن يقوم صدق باشا بهذا النجاح الخالد ، وخوفا من بعضهم مما أثاره عليه حزب الوفد الذي لم يرع وجه الله ولا وجه الوطن .

وأذكر في هذا الشأن حديثا بين صدق باشا ولطفى باشا السيد في هذا الشأن :

قال صدق باشا :

— ألم يصل بنا السن والخبرة يا لطفى أن نقود نحن الرأي العام ؟

فقال لطفى باشا السيد :

— أريد أن أموت على سريري يا إسماعيل .

واستقال صدق باشا من الوزارة ، وتألقت وزارة جديدة برئاسة النقراشي باشا وكان أي وزيراً للمواصلات بها ، وأي في شجاعته ووطنيته أن يخفي إعجابه بمعاهدة صدق بيغن فكتب هذه المقالة بأهرام ٥ ديسمبر سنة ١٩٤٦ رغم علمه أن النقراشي باشا يكره صدق باشا كل الكراهية ، ورغم التيار الجارف الذي ساد حينذاك ضد المعاهدة .

ظهر أهرام ذلك اليوم وبه عنوان : آراء وأفكار « حول مشروع

المعاهدة»، ثم عنوان مقالة أبى «لماذا لا أوافق على المعاهدة؟» وقالت الأهرام:

نشرنا منذ يومين بحثا لحضرة الشيخ المحترم زكريا مهران باشا عنوانه «لماذا لا أوافق على المعاهدة؟» وننشر اليوم بحثا لمعالى إبراهيم دسوقي باشا يرد فيه على من سألته «لماذا يوافق على المعاهدة؟» قال: الجواب سهل بسيط، ذلك لأننى أحب بلادى وأعتقد أن المعاهدة تحقق استقلالها وتحدد يوم الجلاء «بغير دماء..»

ولست أتكلم عن مشروع المعاهدة فأتناول بالبحث سائر موادها وأشرح ما أدخله عليها دولة صدق باشا من تحسين واضح جلّى عظيم، بل أكتفى بالكلام عن مادة الدفاع المشترك، فإن عيوب المعاهدة كادت فى نظر المعارضين تنحصر فيها. وكانت تلك المادة فى أول أمرها مشوبة بشيء من الغموض فأزال دولة صدق باشا غموضها، ثم أحاطها بتحفظات قوية كافية، ودعمها لمصلحة مصر بسياس جعل المساس باستقلالها — اعتمادا عليها — ضربا من المستحيل، إلا إذا تجرد المصريون من الوطنية والرشد والكرامة.

وكان المفاوضون قد قبلوها جميعا عدا واحداً، قبلوها على ما كان بها من غموض. فلما أزال صدق باشا غموضها فى مفاوضاته الأخيرة وجلا ما كان فيها من إبهام ولبس مريب، وأصبحت لا غبار عليها ولا خوف منها، رفضها المعارضون وادعوا أنها الحماية مقتّعة بل إنها الحماية سافرة..

١ — لم يكن هناك نص على أن رأى اللجنة استشارى، فجاء النص

صريحا .

٢ — وأصبحت لا تجتمع إلا إذا دعتها الحكومتان للاجتماع .

٣ — ولا تنظر إلا في البيانات المتفق عليها من الحكومتين .

فبربك قل أيها المعارض ما الذى يخيفك منها بعد ذلك ، وما الذى تخشاه إذا كنت لا تريد أن تجتمع فليس ثمة ما يكرهك على دعوتها ؟ وإذا رأيت أن تدعوها بسبب كوارث تريد أن تتخطاها أو عواصف تخشى عقباها ، فاحذر أن تقبل في بيانات الإنجليز شيئا يضر باستقلالك أو تدخلهم في شئون بلادك ، وامتنع عن البحث في أى أمر لم يرد في بيانك .

وفي آخر الأمر إذا دعوتها للبحث في المسائل الواردة في البيان الذى قدمته أنت إليها ، ثم لم يعجبك رأيها فافرض لأن رأيها استشارى وحكومتك لها حق الرفض .

هكذا تقول معاهدة صدق .

أتريد أن تعرف بماذا أجاب أحد الشجعان من المفاوضين ؟ إنه قال وكلمته مشهورة : إني لا أطمئن على أى حال ، لأن الإنجليزى من أعضاء اللجنة إذا نظر إلى المصرى فإن المصرى ترتعد فرائضه . فأجاب صدق قائلا : إذا يا أخى ، إن مصر إذا صح هذا لا تستحق الاستقلال !!

أى عار يسر بل هذه البلاد إذا صدق هذا المفاوض ؟ وكيف يصور لهم الوهم أن المصرى يرتعد جزعا ويتنفض خوفا وهلعا إذا ألقى عليه البريطانى نظرة تهديد ؟

وقرأت في « الأهرام » بحثا لشيخ معارض هممت بأن أرد عليه ،

ومضيت في تلاوته إلى أن وجدته يقول : وما علينا — لو صح أن معاهدة ١٩٣٦ لا تزال قائمة — إذا انتظرنا سبع سنوات أخرى بعد السنوات الثلاث ؟ فحدقت في جملة ووقعت من يدى « الأهرام » وقلت على الوطنية السلام . ثم عدت إلى الجريدة فأخذتها وإلى الجملة المشنومة فحدجتها واسترسلت في القراءة ، فإذا به يقول بأن الإنجليز لا يعينهم الآن إلا الاحتلال المادى الاقتصادى ، وهم يربطوننا برباط الاسترلىنى ، فعجبت لهذه « السلطة » إذ ما دخل الاسترلىنى فيما نحن فيه ؟ وفى العالم ممالك عديدة مستقلة تربط نفسها به طائفة مختارة ، وجميع كبار الاقتصاديين فى مصر يرون الانفصال عن دائرة الجنيه الاسترلىنى فى الوقت الحاضر كارثة مالية .

وبهذه المناسبة أذكر أن الكثيرين طوح بهم العناد إلى اللجاجة فى المقارنة بين معاهدة ١٩٣٦ ومشروع المعاهدة الأخيرة . ومعاهدة ٣٦ تفرض على مصر مخالفة أبدية بينا تفرض هذه المعاهدة عشرين عاما . ومعاهدة ٣٦ تبقى جنود الإنجليز بعدها إذا ثبت أن مصر أصبحت قادرة على الدفاع عن نفسها . ومعاهدة ٣٦ لا تسمح بالجللاء عن المدن المصرية إلا إذا بنينا ثكنات من منطقة القنال تتسع لجيوش الاحتلال تكلف خزينتنا ما لا قبل لنا به ، وقد بذل المغفور له محمد محمود باشا جهودا جبارة لاشتراك الإنجليز فى النفقات لإقامة هذه الثكنات . وقد فات الباشا عضو الشيوخ المعارض صاحب مقال « الأهرام » أن البريطانيين يشترطونها فى معاهدة ٣٦ .

ولا أذكر كل ما فى معاهدة ٣٦ من عيوب فقد قبلها المصريون على

علاقتها وبكل عيوبها ، من مخالفة أبدية إلى بعثة عسكرية إلى تدخل في شئوننا الداخلية . ورفرف سرب من الحمام على المفاوضين عند قدومهم ، وأطلقت المدافع تكريما لهم ، وأسرع مكرم باشا إلى الجامعة يخطب الطلبة ساعات ويؤكد لهم قول النحاس باشا « اسجدوا لله شكرا فقد جئتمكم بمعاهدة الشرف والاستقلال » .

ثم تناول معاليه مسألة السودان فقال :

— لم يكن يدور في خلد الكثيرين أن صدق باشا سيأتى بالنصوص التى أتى بها « وحدة مصر والسودان تحت التاج المصرى » والفرق بين ما كان المفاوضون قد طلبوه وما جاء به صدق باشا هو أنهم كانوا يرون التأجيل ، ورأى دولته التعجيل .

أما ما يدعيه المعارضون من أن النص يحتمل التأويل ويخول للسودان حق الانفصال فلا نسلم به بأى حال . وقد فسر دولة صدق باشا النصوص بما يطمئن أشد الناس تعنتا وأكثرهم مكابرة ، وترك الباب مفتوحا بعد ذلك للمفاوضة لأن التعاون بين المملكتين على العمل لرفاهية السودان وترقيته وجعله أهلا للحكم الذاتى يجعل لنا الحق فى المطالبة بتمكين مصر من ممارسة حقوقها ، ويكفل لها الهيمنة التى كفلتها المعاهدة لها . وتفسير دولة صدق باشا هو الذى نقره ونعتمد عليه ، وكل ما يحصل عليه السودان بعد ذلك من حقه فى الحكم الذاتى والنظام الذى يترتب عليه لا يخرج عن نطاق وحدة وادى النيل تحت التاج المصرى . يبقى مجلس الأمن وأمر المعارضين فيه غريب ، فقد كان مجلس الأمن رجسا إلى وقت قريب ، وحمل الوفد على سياسة الاشتراك فى جمعية الأمم المتحدة

وأخذ يشهر بها وينكر الفائدة من وجودها ، وقتل الشهيد أحمد ماهر في سبيلها .

فلما وجدت وتكونت هيئاتها وأصبحت مصر من أعضائها ، وتشكك بعض المصريين في نتيجة عرض قضيتنا عليها انقلبت جمعية الأمم خيرا عميما وفوزا للحرية عظيما وقاضيا عادلا صادقا رحيمًا .

وأراد الله أن يجلو الشك باليقين فطرح ممثلنا في هذه الجمعية منذ أسبوع واحد مسألة الجلاء .. جلاء الجيوش الأجنبية عن بلاد الأمم المشتركة في الجمعية ، وأخذت الأصوات فأسفرت عن ٢٩ صوتا بالرفض و ١٣ صوتا بالموافقة على الاقتراح أكثرها من الأمم العربية . هذه النتيجة العظيمة ، هذا البرهان القوى للملوس الدافع ، هذا الرد السريع الصريح ، لا يفتح عيون المعارضين ولا يبصرهم بالعواقب يتغنون بأنشودتهم المحبوبة : مجلس الأمن ! مجلس الأمن !

ولست في حل من الكلام عن مجلس الأمن ، ومن الوطنية أن أكف عن الاسترسال في بيان رأيي فيه ، ولكنني أحيلكم إلى ساستنا الوطنيين الأكفاء المخلصين الذين خبروه عن قرب ، واشتركوا في اجتماع هيئة الأمم المتحدة وفي مجلس الأمن وفي سائر المؤتمرات فوقفوا على اتجاهها وتبينوا حقيقة نياتها .

هؤلاء الساسة المصريون لا يرقى الشك إلى وطنيتهم ، ولا يجروا إنسان على الطعن في كفاءتهم . فقد رفعوا رءوسنا ولفتوا أنظار العالم لنا ، فوقف باهتا مشدوها مأخوذا بتلك الجرأة العجيبة والكفاءة الممتازة والحماسة الوطنية التي جعلت بريطانيا تململ متوجعة تشكو ، وكانت تنتظر منهم

بعض مظاهر الود والمجاملة .

أناخذ بكلام رجالنا هؤلاء وتلك خبرتهم وهذه مواقفهم ؟ أم نأخذ برأى المتفائلين الذين كانوا متشائمين ، وتأثر بحملات بعض المعارضين وقد كانوا إلى وقت قريب موافقين يحبذون ويصفقون ؟

إذا وقعت المعاهدة فإن الجلاء عن القاهرة والإسكندرية وبلاد الدلتا يتم في شهر مارس ، أى بعد ثلاثة أشهر وبضعة أيام ، وبعد ذلك بستتين ونصف السنة يتم الجلاء عن بلادنا بأسرها في يوم محدد هو أول سبتمبر ، والفضل لصدقى باشا في هذا التحديد . أتريد من وطنى صادق الوطنية ومن مصرى مخلص صادق النية أن يتردد في الموافقة على خلاص بلاده من أسرها واستكمال حريتها واستقلالها ، وتريد من مصرى نزيه عاقل يحب بلاده ويفديها بحياته أن يستبدل ذلك بقضية خاسرة يقدمها إلى محكمة يعتقد أنها ستحكم فيها بالإعدام ولديه على ذلك ألف برهان ؟؟

كان المغفور له قاسم أمين يقول :

« أعرف قضية يحكمون بالظلم ليشتهروا بالعدل »

وأنا أعرف رجالا يسيئون إلى وطنهم ليشتهروا بالوطنية .

وإلى هنا انتهى ما جاء بالأهرام على لسان أبى .

* * *

كانت هذه المقالة ذات صدى بعيدا عندما نشرت ، ولكن متى ناقش الوفديون بالمنطق ؟ لقد رفضوا أن يتحقق هذا النجاح الفائق الذى بلغه صدق على غير أيديهم ولتذهب مصر والوطنية إلى أى جحيم تشاء .

* * *

في وزارة النقراشي باشا التي أعقبت استقالة صدقي باشا ، قررت الوزارة أن يذهب وفد مصرى إلى هيئة الأمم وتكوّن الوفد وكان وزير الخارجية من بين أعضائه ، وتولى أبى وزارة الخارجية بالنيابة .

رأس وفد مصر النقراشي باشا ، وبلغت وطنية النحاس الحضيض في هذه الأيام فقد أرسل برقية إلى هيئة الأمم يقول فيها : إن هذا الوفد لا يمثل مصر . كان ينبغي لو كان يحمل ذرة من الشعور بالوطنية أن يؤيد النقراشي باشا ، والدرجة الأدنى أن يصمت وينتظر . أما إرسال برقية إلى هيئة الأمم يبلغها فيها أن النقراشي باشا لا يمثل مصر فذلك كبيرة من كبائر الخيانة العظمى لا نستطيع أن ننساها للنحاس باشا أو لحزب الوفد .

في هيئة الأمم وعلى ملأ من العالم وقف النقراشي باشا وصاح في وجه الإنجليز : اخرجوا من بلادنا أيها القراصنة . ودوت الصيحة في أنحاء الدنيا فهي المرة الأولى التي تسمع فيها إنجلترا مثل هذه العبارة ، وهي في تلك الأيام الإمبراطورية التي لا تغيب الشمس عن الدول التابعة لها .

وقد استقبل الشعب النقراشي باشا استقبالا حافلا حين عاد . ولكن رحم الله شوقى حين وصف مصر بقوله :

نسيت روعته في بلد كل شيء فيه ينسى بعد حين
لم يمض وقت كثير حتى قتل النقراشي باشا بيد غادرة ممن يسمون
أنفسهم بالإخوان المسلمين ، وما هم بإخوان وما هم بمسلمين .

وتولى الوزارة إبراهيم باشا عبد الهادى الذى كان يومذاك رئيسا للديوان الملكى ، وكان هذا طبيعيا فقد كان الشخص التالى في حزب الهيئة السعدية ، ولو أن الملك اختار بدلا منه هيكل باشا رئيس حزب الأحرار

الدستورين لكان في هذا شبه موافقة من السراى على قتل النقراشى باشا .
واختير أبى وزيراً للمواصلات فى وزارة إبراهيم باشا عبد الهادى .
وفى لقاء بين هيكل باشا وبين الملك قال له الملك :
— رئاسة الوزارة تنتظرك وستناولها فى يوم من الأيام حتماً .
فإذا الأديب العملاق والزعيم العظيم يقول له :
— إننى يا مولائى حين أجلس إلى مكتبى تصغر فى عينى كل وظائف
العالم .

استمرت حكومة إبراهيم باشا عبد الهادى إلى أواخر عام ١٩٤٩ ،
وكان مجلس النواب بهذا قد أكمل دورته الخامسة . وأعتقد أن هذا المجلس
هو المجلس الوحيد فى الحياة النيابية التى بدأت بدستور ١٩٢٣ الذى
أكمل فى مقاعده خمس سنوات كاملة تقريباً ، وأصبح لا بد من التفكير فى
حل المجلس .

استقال إبراهيم باشا عبد الهادى وظهرت فى الأفق بعض آمال أن
تتكون وزارة مؤتلفة من كل الأحزاب ، وتمهيداً لهذا الأمل كلف الملك
حسين سرى باشا بتأليف الوزارة من كل الأحزاب . وقبل حزب الوفد
أن يشترك فى الوزارة وكان أبى وزيراً فيها ، وفى الإسكندرية راح الوزراء
يدعون إخوانهم لموائد الغداء لتأكيد التآلف ، وكان من ضمن أعضاء
الوزارة كريم ثابت باشا الذى فرضه الملك فرضاً فكان الوزراء يدعونه
مع الأعضاء الآخرين على موائدهم ، حتى جاء دور أبى ليدعو الوزراء
فوجه إليهم الدعوة للغداء فى بيته بالإسكندرية ولكنه رفض . أن يدعو
كريم ثابت وكنت أنا موجوداً فى هذه الدعوة .

(لمحات من حياتى)

قليلا ما بقيت هذه الوزارة ، وتفجر الائتلاف وهو أمر كان منتظرا طبعاً . وألف سرى باشا وزارة من المستقلين كان أوضح ما فيها أنه أشرك معه زوج ابنته الدكتور محمد هاشم باشا ، وأطلق عليه الشعب لقب شيانو مشبها إياه بزواج ابنة موسيليني الذى كان الديكتاتور القتل يطلق يده فى حكم إيطاليا أيام رئاسته ، وقد قتلها الشعب معا وعلق كليهما من أرجلها فى ميدان عام .

وقد توثقت صلتى بعد ذلك بالمرحوم محمد هاشم باشا ، وأشهد أنه كان كفئاً للمنصب الذى تولاه مع حميه بل كان أكبر منه بعلمه وثقافته واتزانه ، وقد نال فى هذه الوزارة لقب الباشوية . وأجرت وزارة سرى باشا الانتخابات ، وقد اكتسح الوفد وكان اكتساحه لسبيين أولهما وأهمهما طول بقاء الوزارات المعادية للوفد فى الحكم والشعب المصرى تواق إلى التغيير حتى وإن كان التغيير إلى الأسوأ . ولذلك فإننى أعتقد أن الوفد لم يحافظ على شعبيته إلا لأن الملك كان يقيه دائماً ، وكانت هذه الإقالة ترفع أسهمه عند الشعب الذى يقدر أى إنسان يقف فى وجه الحاكم الأعلى . ولو أن الوفد ترك فى الوزارة ليكمل دورة واحدة لفقد شعبيته التى كان يتمتع بها إلى الأبد .

أما السبب الثانى لنجاح الوفد نجاحاً باهراً فى هذه الانتخابات فهو شعور رجال الشرطة أن التيار العام مؤيد للوفد ، فأعملوا تزويرهم لحسابه حتى يطالبوا بالمكافآت حين يقتعد الوفد كراسى الوزارة . ومع ذلك فحين أحصى أهل الإحصاء الأصوات التى نالها حزب الأحرار الدستوريين والهيئة السعدية فى هذه الانتخابات ، أوضحت

الإحصاءات أنها كانت تفوق بكثير عدد الأصوات التي نالها الوفد ، مع أن كلا من الحزبين لم ينل إلا حوالى ثلاثين مقعدا فى البرلمان . وهكذا كانت المعارضة ممثلة فى ستين نائبا ونيف من مجموع عدد الأعضاء الذى كان مائتين وخمسين عضوا فى تلك الأيام .

نهج الوفد فى هذه الوزارة نهجا جديدا كل الجدة على سياساته السابقة . والجدة فيه أنه أخذ نفسه بالنفاق الرخيص كل الرخص للملك . وقد بدأ ذلك فى اليوم الذى حلفت فيه الوزارة اليمين برئاسة النحاس باشا إذ قال النحاس للملك فجأة وبدون مقدمات :

— مولاي إن لى عندك رجاء أنا مصمم أن أناله .

— ما هو ؟

— أن أقبل يدك .

وبهذه الجملة وهذا الشعار بدأت الوزارة الوفدية الجديدة عهدها الذى نسبت فيه الملك إلى النبى عليه السلام ، والذى قال فى أثنائها النحاس باشا حين سئل عن رأى له فى إحدى المشكلات « إن فى « كبرى » قبله نتجه إليها جميعا » . وكان الملك يصطاف فى « كبرى » فى تلك الأيام . وأذكر أن روز اليوسف ظهرت فى أحد أعدادها وفى صدرها صورة لحذاء ضخم وكتبت تحته القبله التى يتجه إليها رئيس الوزراء . على أية حال ، دخل أبى طبعها هذه المعركة الانتخابية وكنت فى ذلك الحين فى السنة النهائية من كلية الحقوق ، وقد شاركت فى هذه الانتخابات مشاركة جدية ونجح أبى طبعها نجاحا ساحقا . ومن الطرائف

التي لا أنساها أنه طلب مني أن أحضر له من كاتب الحسابات المبالغ التي أنفقها في المعركة الانتخابية وكانت هذه المبالغ تنفق على الولايم التي كانت يومية طبعا في بيتنا . وفعلت ما أمر به وأحضرت الحساب وصعدت به إليه في الطابق الأعلى ، وكان المبلغ أقل من ألف جنيه . فنظر في الورقة ومزقها ونظر إلى قائلا : لا أحب أن يعرف أحد هذا المبلغ . فقلت : طبعا . وأدركت أنه يستكبر أن يعرف الناس أنه ينفق في الانتخابات هذا المبلغ مع أنه أنفق كله على مواجهة الزوار . فلم نكن نعرف في تلك الأيام كلمة الرشوة للأصوات ولا عرفناها في انتخابات أخى في انتخابات ٧٦ والحمد لله .

أصبح أبى في مجلس النواب زعيم المعارضة عن الأحرار الدستوريين ، وكان الأستاذ حامد جودة الذى كان رئيسا للمجلس السابق زعيما للمعارضة عن الهيئة السعدية .

وظل الأمر كذلك حتى حريق القاهرة وانتهيار الحياة البرلمانية في

مصر .

* * *

٧

لعن الله السياسة فقد جرفتني عن الحديث إليك عن نفسي في تلك الفترة ، وماذا كنت مستطيعا أن أفعل وقد كانت الأحداث يأخذ بعضها برقاب بعض وقد حذرتك من أول هذا الحديث أنني لن أتقيد بالسنوات ولا بالأيام المتتاليات ، وإنما سأترك الأحداث تقدم نفسها إليك في عفوية وفي غير ترتيب أو تدبير .

مضيت في دراسة الحقوق غير متعثر ولا متفوق ، وظللت أكتب في مجلة الثقافة والرسالة معا .

وفي يوم فوجئت بعمى عزيز باشا — ولم يكن قد نال الباشوية بعد — يطلبني بالتليفون ويهتني على مقالة لي ظهرت في مجلة الثقافة ، فملأني الفرح العظيم فقد كان عزيز باشا في ذلك الحين قد انبثق كالشهاب في سماء الشعر العربي بدويانه الأول الذي اختص به ذكرى زوجته السيدة زينب هانم أباطة . وقد كانت هذه السيدة من أحب الناس إلى أمي كما كانت أمي من أحب الناس إليها . وكانت صلتنا بأسرة عزيز باشا وثيقة كل التوثق فقد كان عزيز باشا يعتبر أبى أخا أكبر له . ولعل من الطريف أن عمى عزيز هنا أبى بزواجه بقصيدة أعلّقها في بيتي الآن فالمادح والممدوح كلاهما جد ابنتي وابني . وربما يكون من المعقول أن أثبت هذه القصيدة في هذا الحديث الذى أتقدم به إليك فهى على أية حال قصيدة لم تُعرف لآخر

عمالقة الشعر العربى وموضوعها أبى ، وهذا الكتاب يحمل إليك ما لا تعرفه عن حياتى فما بغريب أن أقدم إليك القصيدة التى أنشأها جد أولادى عن جد أولادى فى عام ١٩٢٤ وهو العام الذى تزوج فيه أبى ، وكان عزيز باشا قد تزوج فعلا من السيدة زينب هانم بعد قصة حب رائعة . والذى لا شك فيه أن قليلين الذين يعرفون أنها كانت تكبره بعامين . ولكن صلتنا بأسرة عزيز باشا لم تكن تتمثل فى كثرة التزاور فقد كان فى تلك الفترة مديرا فى مديريات مصر وكان مجيئه إلى القاهرة قليلا . ومكالمته هذه لى التى حدثتك عنها كانت وهو مدير لأسىوط ، وكانت روايته قيس ولبنى قد ظهرت أيضا فوضعت قدمه بعظمة على المسرح الشعرى . وشاءت الأقدار أن تكون لى به وبأسرته وبرواياته أعمق الصلات وأقواها . طبعاً أننى تزوجت ابنته الصغرى فكانت ولا زالت حياتى ، أو هى — والله أعلم — أحب لى من حياتى ، وهى أم ابنتى أمينة وابنى دسوقى ، ولكن حبنى إياها زوجة وشقيقة روح وخذن عمر ، أقوى من حبنى إياها أما لابنتى وابنى .

إليك القصيدة وقد تلحظ فيها أن عزيز باشا يمتدح زواج الأقارب وما هذا بغريب ، فزوجته زينب هانم بنت عمه سليمان بك عثمان أباطة عضو مجلس الشيوخ ، كما تزوج أبى ابنة عمه عبد الله بك السيد أباطة وقد كان عضوا بمجلس شورى القوانين وهو ابن السيد باشا أباطة والد جدى لوالدى إبراهيم بك أباطة الذى كان عمدة غزاة بلدتنا ، وقد أنجب سيد باشا أربعين ابنا وابنة ، وربما من الطريف هنا أن أذكر أن السيد باشا هذا أهدى الخديوى تفتيشا قدره ١٢ ألف فدان ، مما يدحض قول الجاهلين أن

الخدوي كان يوزع الأرض على الأعيان ، فالحقيقة أن الأعيان هم الذين يهدون الأرض إلى الخديوى .
أما توزيع الأرض من الملوك على الأمراء والإقطاعيين فلم يكن إلا في فرنسا ، وما عرفته مصر على الإطلاق وما عرفت الإقطاع الذى يعرفون به فى حياتها .

إليك القصيدة :

منفوسة فى الشباب المونق الحالى	حى الغزالى ^(١) وقل بلغت منزلة
إدراكه غيره إلى نال	موفورة الحظ من شأو يقصر عن
فقلت بل طرف أخلاق وأعمال	قالوا الشيبة طرف اللهو محتدا
درك المحامد فينا والسنا العالى	وقفت أنضر أيام الحياة على
والمجد صعب على طلابه غالى	فملت فى غير عسر ما نهضت له
فبعث الآى فى أسلوبها الحالى	يا صاحب القلم السحرى ترسله
نثر اللآلى فى قاعات لآل ^(٢)	وصاحب الخطبة الفيحاء تنثرها
بين الندى نشأت والنبيل والمال	ليهنك اليوم أن تبنى بطاهرة
ووفقت بعد فى عم وفى خال	غنى بفضل أبيها الناس قاطبة
بالنافع المرتجى والبالذ النال	زين الغوائى ^(٣) الأباظيات قدظفرت
والصائب الرأى والتدبير والقال	الساكب العرف والمأمول جانبه
إذا التزواج لم يخرج عن الآل	إن الزواج لمؤت خير عاقبة

(١) الغزالى هو التوقيع الذى كان يمهز به أبى مقالاته السياسية منتسبا إلى بلدتنا غزالة .

(٢) لآل : صانع اللآلى .

(٣) الغانية : التى تستغنى عن التجميل .

لا تصغ للطب في هذا وخذ ثمر التجريب تحيا رضى النفس والبال
تحنو على وترعى غيتى أبدا على الليالى بنات العم والخال
يرضين علمى وجهلى لا يضقن به ذرعا ويحمدن إكثارى وإقلالى
ويغتبطن بإجمالى يشدن به وقد يكون ضئيلا شأن إجمالى
لا زلتما تشهدان العيش متسقا والدهر في حذب منه وإقبال
توثقت صلتى بعد ذلك بعمى عزيز وكنت كثيرا ما أكلمه فى أسبوط
بالتليفون ، وبدأت صلتى أيضا بزوجتى .. صلة من نوع آخر غير صلة
القربة . فأنا طبعاً أعرفها منذ وعينا الحياة أنا وهى بحكم القربة ، ولكن
هذه الآصرة الجديدة التى بدأت كانت من ذلك النوع الذى يعرفه تاريخ
البشرية ، والتى كانت سببا فى بقاء هذه البشرية على قيد الحياة .

وحبا فى هذه النبضات الجديدة التى بدأ قلبى ينبضها عرضت على
عمى عزيز أن أشرف على طبع روايته العباسية . وفى المطبعة قابلت شخصا
توثقت صلتى به بعد ذلك ، وكنت حين رأيته أول مرة وكنت أعرفه لأنه
كان حينذاك قصاصا مشهورا ، ولم أكن بعد مشهورا ، ولهذا خجلت أن
أكلمه فى المطبعة . إنه المرحوم الأخ الحبيب الإنسان الملاك يوسف
السباعى . وأصبحت بعد ذلك مسئولا عن طبع روايات عزيز
باشا . وقد مُثلت روايته العباسية أمام الملك فى ذلك الحين وأحب أن ينعم
عليه برتبة الباشوية فى دار الأوبرا ، ولكن النقراشى باشا الذى كان رئيسا
للوزراء ووزيرا للداخلية رجا الملك ألا يفعل ، لأن عزيز باشا لم يكن فى
ذلك الحين أقدم المديرين ولم يكن أقدم منه إلا شمس الدين عبد الغفار
الذى نال الباشوية فيما بعد ، وحين حاول الملك أن يفهم النقراشى باشا

أنه يمنحه الباشوية كشاعر وليس كمدير لأسبوط ، ألح النقراشى باشا فى الرجاء فكان هذا خيرا عزيز باشا دبّرت له السماء ، فقد أقام الملك حفل تكريم خاص لعزيز باشا وجميع الممثلين فى المسرحية والمخرج ولجنة القراءة والإداريين ، وفى هذا الحفل أنعم الملك بالباشوية على عزيز باشا .

من ذكرياتى عن تلك الأيام أن عزيز باشا كلفنى أن أحضر بروفات روايته الناصر فى الفرقة القومية لأصحح اللغة العربية للممثلين ، وكنت حينذاك طالبا بكلية الحقوق ، وهكذا تعرفت بأكبر ممثلى مصر فى هذه المناسبة .

ووهكذا ازددت قربا من عزيز باشا ومن عفاف ، وكنت قد أحسست بوجيب الحب قبل هذا بشهور . وكنا فى الإسكندرية وكنت أختلق الأعذار لأزور بيت عزيز باشا الذى كان بالشاطبي فى ذلك الحين . وكنا وعفاف نتحدث فى الأدب كثيرا مما قوى حجتي أن أحضر لها الروايات التى ظهرت فى المکتبات ، وكنت أقرأ لها شعر شوقى . وفى عفاف خاصية عجيبة — أو ربما لا تكون عجيبة بالنسبة لها — فإنها تحس بأى كسر أو عيب عروضى فى الشعر بأذنها دون أن تدرس العروض طبعا ، فقد تلقت أغلب تعليمها فى مدارس الفرنسيين وهى اللغة التى تميدها كل الإجابة لدرجة أننى أذكر أننا كنا فى يوم ما أنا وهى فى باريس ووقفنا فى أحد مواقف التاكسيات ، واتصل الحديث بيننا وبين أحد المنتظرين معنا وعرف أننا مسافران إلى مصر فقال لى : أنت تسافر لأنك واضح أنك مصرى ، ولكن لماذا تسافر السيدة ؟ فقد ظن لإتقانها اللغة الفرنسية أنها فرنسية .

في إحدى زيارتي لمنزل الشاطبي جلست أنا وعفاف ورحت أقرأ لها بعض أبيات لشوقي في جزئه الرابع ، وفجأة قلت :
— ما رأيك أن أقرأ لك البخت بالشعر .
— طيب .

— أفتح الديوان وأقرأ البيت الذي يقع عليه نظري دون قصد .
— وهو كذلك .

وفتحت الديوان وقرأت فإذا بختها :
لا بأس عليك يا حوريتي أنت وأبنائك حتى يكبروا في خفرتي
فكأنما كان هذا البيت إيذانا بالزواج .

نجمت في السنة الثانية في كلية الحقوق وكان د. شوقي باشا مديرا للجامعة ، وقد تفضل معاليه بأن ينقل إلى أبي درجاتي كلما ظهرت نتيجة علم من العلوم حتى تمت النتيجة كلها ونجمت نجاحا موقفا .

وطبعا كنت قد فاتحت أمي برغبتي في خطبة عفاف ووجدت عندها ترحابا شديدا ، فأمر عفاف رحمه الله — كما قلت لك — كانت من أحب سيدات العائلة إليها إن لم تكن أحبهن ، وعرض الأمر على أبي فرحب هو أيضا . وهكذا خطب أبي عفاف من عمي عزيز ، وقال عمي عزيز :
— وهل أجد لها أحسن من ثروت ؟

فقال أبي :

— أنا طبعا أعرف حبك لثروت ، ولكني أريد أن أعرف رأيها هي .
ولعلك تعجب أن عفاف قالت لأبيها : أخاف أن يكون فارق العمر بيننا قريبا . وفعلا الفارق بيني وبينها سستان وبضعة شهور . ربما كان ما قالته هذا

خجلا من أيها أو ما لا أدري من مشاعر المرأة التي أعترف حتى اليوم أنني
لست خبيرا بدخائلها ، بل وأحسب أنه ليس هناك من هو خبير بشأنها .
وتمت الخطبة وسط أفراح واضحة من خاصة زوجتي ومن خاصتي
على السواء . وتم الاتفاق طبعاً ألا يكون الزواج إلا بعد أن أحصل على
الليسانس .

نجحت من السنة الثالثة إلى الرابعة ، ولا شك أن الخطبة ألهتني عن
المذاكرة التي تكفل لي النجاح في الليسانس . وتزوجت في ١١ يونية عام
١٩٥٠ . ولم تكن النتيجة قد ظهرت بعد . وفوجئت أنني لم أنجح وأنه
لا بد لي أن أؤدي ملحقا في المرافعات والتجاري . وهكذا بدأت حياتي
مع زوجتي وأنا بعد طالب في كلية الحقوق . ورحت أذاكر في منزل
الزوجية وأنا أشعر بحرج شديد ألا أنجح فتكون فضيحة لي كزوج وهو
تلميذ . وشاء الله أن يكتب لي النجاح . وربما من الذكريات التي تستحق
أن تقال أنني عرفت نتيجة الليسانس وأنا أتكلم من تليفون في مطبخ
مطعم الكورسال الذي كان مواجهها لسينما ديانا في ذلك الحين . فقد كان
يحلولي أنا وزوجتي أن نتناول غداءنا خارج البيت ونذهب إلى السينما في
حفلة الساعة ٣ . وخطر لي ونحن ننتظر الغداء أن أسأل نسيينا الدكتور
العظيم عثمان خليل عثمان أستاذ القانون العام إن كان عرف شيئا عن
نتيجتي ، ولم أتوان وقمت بأبحث عن التليفون في المطعم فإذا هو داخل
المطبخ ، فلم أجد بدا من أن أفتحهم المطبخ . وبين لغط الطهارة أجاوبني
الدكتور عثمان خليل وبشرني أنني أصبحت محاميا ، وبشرت زوجتي ،
وما دمت ذكرت الدكتور عثمان فلا بد أن أذكر فضله عليّ وموقفه الذي

يدل على منتهى الأمانة مع النفس ومع شرف المهنة .
 الدكتور عثمان متزوج من السيدة هدى هانم أباطة ابنة عمى عبد
 العظيم بك أباطة الذى كان مديرا لحسابات السكة الحديد ، وهو ابن عمه
 والذى ، فحين دخلت كُلية الحقوق رجوت د. عثمان أن أزوره ليشرف
 على مذاكرتى فرحب بذلك . فكنت أقصد إليه وأنا فى السنة الأولى من
 كلية الحقوق ويسترجع معى المواد جميعا فهو لم يكن يدرس للسنة
 الأولى ، وفى السنة الثانية كان هو أستاذنا فى المدرج للقانون الإدارى ،
 ولم أتوقف عن الذهاب إليه وكنت دائما أتناول عشاءى عنده كلما زرته .
 وفى مرة تمنعت عن العشاء خجلا مدعيا أننى تعشيت ، فألح علىّ قائلا :
 — نقنق .

أى كل شيئا بسيطا .
 وفى أثناء العشاء نسيت نفسى وأكلت ، فإذا هو يتسهم ويقول لى :
 — فى المرات القادمة نقنق فى بيتكم وتعشّ عندنا .
 وضحكنا . ومما أذكر من أفضاله أننى ذهبت بعد ذلك بسنوات إلى
 الكويت فاستضافنى فى بيته وأكرمنى هو وزوجته كل الإكرام . وقد كان
 يعمل فى الكويت مستشارا دستوريا للمجلس التشريعى بها .
 وقبل أن أروى موقفه الشريف منى يحلو لى أن أروى الموقف الذى
 ترك من أجله العمل فى الجامعات المصرية . فقد نشأ خلاف بينه — وكان
 عميدا لكلية الحقوق فى ذلك الحين — وبين الوزير العسكرى الذى كان
 وزيرا للمعارف ، فقدم د. عثمان استقالته ففرحت زوجته بهذا فرحا
 عظيما لأنها كانت ترجوه أن يترك الجامعة ويفتح مكتب محاماه . حتى

يستطيع أن يواجه المصاريف المتزايدة التي يضطران إليها لكثرة ما أنجبا من بنين وبنات . ولكن الفرحة لم تتم ، ففي اليوم الذي قدم فيه استقالته طلبه مكتب الوزير في التليفون وأبلغه أن الوزير يريد أن يراه مساء هذا اليوم ولم يستطع طبعاً أن يعتذر ، وتوجست زوجته شراً أن يلح عليه الوزير ليسحب استقالته ، فطلبت إلى زوجها أن تذهب معه وتنتظر في السيارة حتى ينتهي من مقابلة الوزير وفعلت . وصعد إلى مكتب الوزير ومكث قرابة ساعتين ونزل وقد بدا على وجهه الضيق والألم ، وقالت له زوجته :

— سحبت الاستقالة ؟

— كان الإلحاح أكبر من قدرتي .

فبكت زوجته .

وظهرت الصحف في الصباح أن الدكتور عثمان خليل عثمان سحب الاستقالة التي كان قدمها .

وفي اليوم التالي ظهرت الصحف وفيها أن وزير المعارف — أو التربية والتعليم لا أذكر ماذا كان اسمها في ذلك الحين — أصدر قراراً بإحالة الدكتور عثمان خليل عثمان إلى المعاش .

وهكذا كان عهد الطغاة يأبى للإنسان أن يحتفظ بكرامته ، وإن كان لا بد أن يترك عمله فإنه حتم عليه أن يتركه مفصولاً لا مستقلاً .

وعرضت الكويت على د. عثمان العمل بها فقبل .

أما موقفه معي وهو يدرس لي الإداري في السنة الثانية فقد كان عظيماً وإن كنت أنا الغارم فيه . كنت عنده في البيت كعادتي وكان بيننا وبين الامتحان ثلاثة أشهر فإذا هو يقول لي :

— حضرتك لا تأتى إلّى بعد اليوم .

ودهشت :

— لماذا ؟

— سابدأ فى وضع الامتحان ، فإن بعدت بك عن موضوعات الامتحان ظلمتك ، وإن أشرت إليك إلى أهمية مواضيع الامتحان خنت الأمانة وظلمت نفسى .

هكذا كان الأستاذ العظيم د. عثمان خليل عثمان ، وهكذا كان أساتذة هذا الزمان . أتناول عنده الطعام ويأبى ضميره أن يكون على صلة بتلميذه وقريبه فى الفترة التى يضع فيها الامتحان ، وربما حتم علىّ أن أقول إن الصلة بينى وبين الدكتور لم تقف عند مكان التلميذ من أستاذه ، بل اتخذ منى أخاً أصغر يفضى إليه بدخيلة نفسه ويستأمنه على خاصة أسرارهِ التى لا يستأمن عليها أحداً من خاصته . ولكن الصلة الشخصية أمر يختلف كل الاختلاف عن نقاء الضمير وشرف النفس .

حين تخرجت فى الكلية كان همى أن أبحث عن وظيفة وكان أبى قد ترك الوزارة . ولو كان باقيا بها ما فكر أن يعيننى فيها على الإطلاق ، وهل أدل على ذلك مما حدث لى مع أبى ؟ إليك ما حدث :

كان حافظ عفيفى باشا رئيس مجلس إدارة بنك مصر حين تخرجت ، وحافظ عفيفى باشا صديق لأبى منذ ما قبل ثورة ١٩ ، وهو كما لا يعرف الكثيرون طبيب متخصص فى الأطفال . وكنت قد مرضت بعد شهور من ولادتي مرضاً كاد يودى بحياتى فقد أصبت بالدوسنتاريا الحادة ، وكان يعالجنى طبيب أجنبى ومعه الدكتور إبراهيم شوقى باشا والدكتور

حافظ عفيفى باشا . وربما تدرك خطورة المرض مما قال الطبيب الأجنبى لوالدنى .. إننى كفوطة على مشجب ، الله وحده يعلم إن كانت تبقى أم تسقط . وتولت عمى تمرضى فى إصرار حتى كانت لا تنام فى الليل أو النهار . وما أظننى بحاجة أن أقول إننى نجوت من الموت وإلا فما كنت التقيت بك وكتبت لك هذا الحديث الذى أكتب .

أظنك تبينت مدى العلاقة التى تصل بين أبى وبين د . حافظ عفيفى باشا .

كنت مع أبى فى حجرة نومه وكان يحلق ذقنه كعادته ، وأحضرت له التليفون وقلت له :

— ألا تكلم لى د . حافظ باشا عفيفى ليعيننى فى القسم القانونى بينك مصر ؟

وترك الحلاقة ونظر إلّى فى دهشة :

— أنتتظر منى أن أرفع سماعة التليفون وأطلب من أحد مهما يكن أمره أن يعين ابنى ؟ هل تتصور هذا ؟
وسكت طبعاً ، وعجبت فإننى لم أكن أتصور غير هذا .

كان ثمن هذه الكلمة أربعة وعشرين عاماً من عمرى قضيتها بلا وظيفة ، واضطرت فى أثنائها إلى بيع معظم ما تركه أبى لى من أرض حتى أواجه حاجات الحياة الضرورية . فأنا لم أكن يوماً لاعب قمار ولا شارب خمر والحمد لله ، ومع ذلك لم يبق لى من أرضى التى ورثتها إلا قدر أخجل أن أذكره ، والحمد لله على ما وهب والحمد لله على ما منع .
كان عزيز باشا قد وعدنى أن يهين لى وظيفة فى إحدى شركات

البترو ل ، وانتظرت الوظيفة دون جدوى . ولولا شغفى بالقراءة وكتابة بعض التمثيليات الإذاعية ، فقد كنت قد بدأت أكتب تمثيلات للإذاعة منذ عام ٤٩ . لملأ الفراغ حياىى كلها . ولعل بقائى هكذا فى البيت كان السبب المباشر لكثرة الشجار بينى وبين زوجتى ، ولعل هناك سببا آخر أهم من ذلك . فقد تزوجنا على حب جارف فكان كل منا ينتظر من الآخر ما لا يطيق الآخر أن يقدمه . وربما كانت سننا الباكرة سببا أيضا فى التمسك بتوافه الأمور وصغيرها وتضخيم الأخطاء والمبالغة فى تقويمها . ولا شك أن قلة المال فى يدنا كانت سببا جوهرىا آخر على الرغم من أننا لم نكن قد رزقنا بابتنا وابننا بعد . وقد استمرت هذه الحالة من الشجار حتى علا بنا السن وبلغنا الأربعين تقرىيا فاستقر ما كان مضطربا وهدأ ما كان عاصفا .

٨

ظللتنا ثلاث سنوات لا ننجب ، حتى إذا كانت السنة الثالثة ظهرت بوادر الحمل ورحنا ننتظر مولودنا بفرح وشغف شاركنا فيها جميع أهلنا .

وحدث لسوء الحظ أن توفي في فترة الحمل هذه عم زوجتي المرحوم عثمان بك أباطة الذي كان عضوا بمجلس النواب لفترة طويلة ، وحزنت زوجتي لوفاته حزنا شديدا ، وأغلب الأمر أنها أجهدت نفسها في المأتم أكثر مما ينبغي لحامل أن تفعل ، وكانت النتيجة القاسية المرة أن مات الجنين قبل أن يولد وكان باقيا على ولادته فترة قليلة . وأحسبني في غنى أن أذكر حزنا لهذا الحادث ، وخاصة أنه جاء بعد وفاة والدي بفترة قليلة .

وفاة أبي

في ٣١ ديسمبر عام ١٩٥٢ شعر أبي ببوادر مرض عرفنا جميعا أنه ليس مرضا هينا . وكانت أمينة هانم حرم عمي عزيز باشا تحب أن تحتفل برأس السنة في الربعماية بلدة عزيز باشا ، وأصرت أن أحضر مع زوجتي هذا الاحتفال . وذهبت فقد كنت أحب أمينة هانم كل الحب وأقدرها أنا (لمحات من حياتي)

وزوجتى فهى التى تولت شأن زوجتى منذ كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، فكانت لها أكثر حنوا من الأم ولهذا أسمينا ابنتنا أمينة على اسمها . ذهبت إلى الريعماية ولكننى وجدت نفسى لا يقرلى قرار خوفا على أبى ، فإننى لا أعرف أحدا أحب أباه كما أحببت أنا أبى . ولعلك فى غير حاجة إلى التعرف على هذا الحب الذى يزيد عمقا الإجلال والتقدير والإعجاب بل والإبهار ، فإن ما قرأته فى الصفحات السابقة نبض بكل هذه المعانى .

لم أستطع البقاء فى الريعماية وهمست لزوجتى أننى عائد إلى أبى فى القاهرة ، وأدركت ما يدور بنفسى ولم تعترض . وفى الليل البهيم قدت سيارتى إلى بيتنا فى العباسية ، وحرصت أن أتسلل إلى الحجرة التى كنت أنام فيها قبل زواجى حتى لا أشعر أمى وأبى بالرعب الذى تولانى خوفا على أبى ، ولكننى لم أستطع فى تسلى أن أتخفى عن الخدم الذين أنبأوا أمى وأبى بعودتى ، فاضطرت أن أدخل إلى أبى فى حجرته . ولا شك أن مظاهر الانزعاج كانت بادية على ، ولكننى اختلقت أعذارا واهية لعودتى أحسب أنها لم تجز على السياسى المخنك ولكنه تظاهر بتصديقها . وتركت بيتى ولحقت بى زوجتى فى اليوم التالى ، وأقمنا بيت أبى طوال أيام مرضه .

تدهورت حالة أبى الصحية فى سرعة عجيبة فلم يستمر مرضه أكثر من اثنين وعشرين يوما ، وفجعت بموته فجعة لم أعرف مثيلا لها فى حياتى حتى حين توفيت والدتى ، فقد عانت قبل الوفاة المرض سنوات طوالا ولم يخفف موتها حزنى عليها ، فقد ظلت إلى آخر لحظة من حياتها متنبهة

تشاركنا الحديث بذكائها الحاد . وقد توفيت والدتي في السبعين من عمرها — أما أبى فقد توفى وهو فى الرابعة والستين من عمره — وكنت فى يوم الوفاة مضطرا أن أذهب إلى المحكمة لأحضر فى قضية غير ذات قيمة ، ولكن شعورى بالمسئولية حتم علىّ أن أرسل القضية إلى الأستاذ إبراهيم أباطة قرييى الذى كنت أتمرن فى مكتبه ليتصرف فيها . وارتاح ضميرى إلى ما فعلت ، وتفرغت بعد ذلك إلى الكارثة التى حاقت بنا . وراح بيت من الشعر يلح علىّ دون أن أستدعيه :

من شاء بعدك فليمت فعليك كنت أحاذر
وكانت جنازة أبى بالقاهرة من الجنازات الكبرى . ولم تتخلف جريدة ولا تخلف كاتب عن رثائه . وكان طبيعيا أن يكون مثواه الأخير فى غزاة ، وقد أبى أهل غزاة أن يدفن دون جنازة أخرى ، وما أحسب أحدا تخلف عن هذه الجنازة .

وقد أقمنا المأتم لمدة ثلاثة أيام بغزاة ، ومما لا أنساه أن مدنى بك حزين أقام مأتما لأبى بيلدته إسنا وأرسل إلى برقية يعتذر فيها عن عدم الحضور إلى غزاة ، لأنه يتلقى العزاء بالسراىق الذى أقامه فى إسنا . وبعد ذلك أقيمت حفلات التأبين لأبى فى جميع بلاد القطر من أسوان إلى الإسكندرية حتى أنى لم أستطع أن أذهب إليها جميعا . ومما لا أنساه موقف الشيخ شعيشع الذى كان أحد القراء الذين رتلوا القرآن فى المأتم ، وحين حاولت أن أقدم إليه مكافأته عن جهده قال :

— إذا كنت تريدنى أن أقبل هذه المكافأة فهات لى يد الباشا لتقدمها

إلىّ .

ورفض في حسم أن ينال مكافأته .
وجاءتنى برقية من الأستاذ الكبير أحمد حسن الزيات بك لا أنساها
قال فيها :

« جل خطب عن عزاء ، فلا أقول عزاء ولا أقول صبرا » .
ثم أقام له بعد ذلك رجال حزب الأحرار الدستوريين حفل تأبين ، مع
أن الحزب كانت الثورة قد حلتها عندما حلت الأحزاب جميعا . ولا أنسى
واقعة من عميد الأدب العربى د. طه حسين فى هذه المناسبة ، فقد كنا فى
بيت هيكل باشا وهو يعد الإجراءات للحفلة التأبين . وقال هيكل باشا
اطلبوا لى طه حسين على التليفون . وكنت بجوار هيكل باشا وهو يكلم
طه باشا وقال هيكل باشا :

— يا طه نحن نقيم حفل تأبين لدسوق فى يوم كذا .
فقال الرجل العظيم وأنا أسمع ما يقول :
— فى هذا اليوم أنا مرتبط بمحاضرة ألقيا . سألقيا وأحضر التأبين
وأتكلم .

وقد فعل . وكان المتكلمون جميعا من أعظم رجال مصر . وألقى
العقاد قصيدة رائعة نشرتها فى كتابى « ذكريات لا مذكرات » .
لا أريد أن أطيل فى هذا الشأن ، فإنه يعيدنى إلى حالة من الحزن والألم
والأسى لم تعد سنى تحتملها . ولكن لا أستطيع أن أترك هذا الأمر دون أن
أذكر أن هذا الحدث كان فى ٢٢ يناير عام ٥٣ ، أى بعد قيام الثورة ببضعة
شهور ، كان لا عمل للإعلام فى أثنائها إلا الهجوم على رجال السياسة
وزعماء مصر جميعا بعنف لم تشهد له مصر مثيلا . ولكن الحب الذى كان

يربط هذه الجموع بأبي رحمه الله كان أقوى من كل هذا الهجوم الضارى
 الشرس الظالم ، فإنه سبحانه لا يضيع أجر من أحسن عملا .
 عدت إلى الفراغ الذى كنت أعانيه من عملى بالحمامة ، فقد كان
 المكتب الذى أعمل به مع المرحوم الأستاذ إبراهيم أباطة قليل القضايا ،
 ومن شأن الحمامة أن تنكمش فى أيام الحكم الشمولى فكنت أذهب إلى
 المحكمة مرة فى الأسبوع أو مرتين على الأكثر ويحيط بى الفراغ من كل
 جانب .

ورحت أبحث عن وظيفة عبثا ، فالوظيفة التى وعدنى بها عمى عزيز
 تأتت علىّ ولم تظهر لها أى بوادر .

وكان خالى مدحت أباطة يعمل بإحدى شركات النقل فعرض على أن
 أعمل بها ، وسارعت بالقبول وذهبت إلى الشركة وكان قد تحدد لى
 مرتب ثلاثون جنيا وقد كان مرتبا عظيما فى تلك الأيام . ومرت الأيام بى
 فى الوظيفة دون أن أعمل شيئا ، فقد كان المفروض أن أكون محاميا
 للشركة مع المحامى الرئيسى لها . وأشهد أنه كان من أسفل الناس خلقا
 ورفض أن يكلفنى بأى عمل خشية منه أن يستغنوا بى عنه . وكم كان تافها
 فى التفكير فأين محام فى أول حياته مثلى من محام مثله ذى خبرة ودربة
 ومران . والغريب أنه عين محامية أخرى كلفها بالحضور فى القضايا ولم
 يكلفنى بقضية واحدة .

ظللت بضعة شهور أتناقضى مرتبى وأنا كاره له غاية الكراهية ، فلم
 أجد نفسى تقبل مالا بلا عمل ، واستقلت وعدت إلى الفراغ لا تحمينى
 منه إلا القراءة الجاححة تصاحبها سعادة غامرة وكتابات للإذاعة أو

الصحف والمجلات من الخارج . ووضح وضوحا تاما أن هناك أمرا ألا أنتظم في العمل بأى جريدة . وكان الصديق الأخ إسماعيل الخبروك أكثر الناس اهتماما بإيجاد عمل لى ، ولكنه كان يجد دائما حائطا خفيا قاسيا يحول بينى وبين التعيين .

فى هذه الفترة تعرفت بالأستاذ فتوح نشاطى لأنى كنت أجلس معه للمدرسة مسرحية الناصر التى كان سيقوم بإخراجها ، وكان عزيز باشا قد سافر إلى أوروبا وكلفنى أن أدارس الرواية مع الأستاذ فتوح وأكون حلقة الوصل بين المؤلف وبين المخرج . وقال لى فتوح إنه معجب بالحوار الذى أكتبه فى تمثيلياتى الإذاعية ، بل والحوار الذى أكتبه فى مقالاتى بالرسالة والثقافة والمصرى . وفكر أن نؤلف مسرحية معا واختار موضوع المعتمد ابن عباد الأندلسى . وتمهيدا للكتابة هذه المسرحية طلب إلى الأستاذ فتوح أن أقرأ كتاب دوزى عن تاريخ الأندلس ترجمة الأستاذ كامل الكيلانى . وقرأت الكتاب بمتعة عظيمة ، وكتبت المسرحية مع الأستاذ فتوح ، وطبعا توليت أنا الحوار فيها كلها وكان باللغة العربية المبسطة .

وقدم الأستاذ فتوح المسرحية إلى الأستاذ يوسف وهبى الذى كان مديرا للفرقة القومية فى ذلك الحين . ورفض الأستاذ يوسف المسرحية ولست أدرى حتى اليوم لماذا رفضها ؟ أكان ذلك لأنها تستحق الرفض ، أم كان للخلاف الذى كان بين يوسف وهبى وفتوح نشاطى دخل فى ذلك ؟

كل هذا كان فى حياة أبى . فحين اختاره الله إلى جواره تذكرت كتاب دوزى واخترت شخصية بهرتنى سيرتها . وفكرت أن أتغلب على أحزاني

بكتابة رواية عن هذه الشخصية يكون التاريخ فيها أساسا ، ولكن لا يكون في نفس الوقت قيذا على .. وهكذا بدأت أكتب رواية ابن عمار ، أنسى به ما واجهته من موت أبى أحب إنسان إلى وأعظم مثل أعلى عرفته من الأحياء ، وكذلك موت ابني قبل أن يولد .

أتممت ابن عمار ولم أجدر لروايتي ناشر أخيرا من دار المعارف ، خاصة أن الرواية صغيرة مما يجعلها مناسبة لعدد من سلسلة أقرأ . وذهبت بكتابتى إلى الأستاذ عادل الغضبان مستشار النشر بدار المعارف حينذاك والشاعر الرقيق ، وكان يعرف اسمى مما يقرؤه لى فى الرسالة والثقافة والمصرى ، وما يسمعه لى من تمثيلات فى الإذاعة . وقال لى كلمة لم أكن أعرفها ، وكنت قد كتبتها فى سياق الرواية ، فقد استعملت كلمة شراك بمعنى شرك . فقال لى إن الشراك رباط الخداء وليس بالمعنى الذى تقصده من السياق . وحمدت الله أن عادل الغضبان لم يجد فى كل الرواية إلا كلمة واحدة فى غير مجاها . وقد كان عادل الغضبان من المهتمين كل الاهتمام باللغة العربية وأسرارها .

ونشرت ابن عمار فى عام ٥٤ هـ بعد أن تعاقدت عليها مع دار المعارف ، وكان العقد يقضى أن أنقضى خمسين جنيها عن كل طبعات الكتاب ، وقد أصبح هذا النوع من العقود باطلا الآن . ولكننى أنا كنت مستعدا للتوقيع حتى ولو لم أنل مليما واحدا عن الكتاب فقد كان أول كتاب لى ، وهذا الذى خالجنى بشأته أمر طبيعى أن يخالج كل من يحاول المحاولة الأولى .

أرسلت كتابى إلى كل الصحف وإلى كل النقاد سواء من عرفتهم أو لم

أعرفهم ، فلم تظهر عنه كلمة واحدة تشعرني أنى كتبت شيئا . حتى كان يوم ذهبت فيه كعادتي إلى توفيق بك الحكيم فى بترو بالإسكندرية وقصة تعرف توفيق بك على نشرتها فى كتابى « ذكريات لامذكرات » ولا أرى داعيا لإعادة نشرها .

وجدته يجلس وحده فى بترو فقد كان الوقت مبكرا ولم يكن رفاق الندوة قد تقاطروا عليها بعد ، فما إن جلست حتى بادرنى توفيق بك .

— مبروك يا سيدى .

— علام ؟

— قررروا كتابك ابن عمار على السنة الإعدادية .

فرحة غامرة انسكبت فى نفسى دفعة واحدة وصحت :

— صحيح ؟

قال وهو يعطينى جريدة الأخبار :

— خذا اقرأ .

وقرأت الخبر . وصمت توفيق بك قليلا ثم قال بعد أن مصمص

شفتيه :

— شوف ولاد .. يأخذون كتابك ويتركون كتابى !

وتلقيت الكلمة بدهشة كبيرة ، وأين أنا من توفيق الحكيم حتى يقارن

نفسه لى .

هذه الفرحة الغامرة نادرا ما شعرت بمثلها فى حياتى كلها . فأنا فى

سنى التى أنا عليها الآن أصبحت أكاد أفقد الشعور بالفرح وإن شعرت به

يتمشى فى أوصالى فمشية واهنة الخطو هينة الشأن .

وحين عدت إلى القاهرة من المصيف وجدت في انتظارى خطابا من دار المعارف ومعه شيك قيمته خمسون جنيا ، والخطاب يخبرنى أن هذا المبلغ هدية لى من الدار لتقرير كتابى على الإعدادية وليس حقا لى . وكان تقرير الكتاب إشارة لى أننى أسير على الطريق ، وأننى أستطيع أن أكتب الرواية . وكانت فكرة روايتى هارب من الأيام قد بدأت تراودنى فبدأت أكتبها على وجل ، وبعد تقرير ابن عمار على الإعدادية لم يكن من العسير أن أجد ناشرا فقد طمع الناشرون أن يقرر كتابى على المدارس فيربحوا هم الربح الوفير .

وجدت ناشرا لروائى ، وظهرت هارب من الأيام فى عام ٥٧ على ما أذكر . وكانت جائزة الدولة التشجيعية قد أنشئت فى هذا العام فعزمت أن أتقدم بروائى لهذه الجائزة ، ولكنى كنت حذرا غاية الحذر فرأيت أن أنتظر إلى اللحظة الأخيرة من التقديم لأعرف جميع المتقدمين معى . ووجدت بينهم أسماء على قدر من الشهرة ، ووجدت بينهم من يكبرنى فى السن بمدى طويل ، ولكننى تجرأت وقدمت روايتى . وفوجئت فى يوم بالتليفون یرن فى بيتى وأحد أعضاء اللجنة التى تنتظر فى الأعمال يهتئى بفوزى بالجائزة ، وكانت فرحة غامرة ولا شك . وعرفت بعد ذلك أن الذى هنأنى بنيل الجائزة هو الوحيد الذى كان يعارض منحها لى فى اللجنة ، وحين سئل عن سبب رفضه قال فى بساطة : إن الرواية لم تعجبه ولكن اللجنة أصرت أن يبدى سببا معقولا لهذا الرفض ، فلم يجد العضو بدا من الموافقة على منحى الجائزة . وهكذا نلتها بالإجماع . وقبل ظهور نتيجة الجائزة بفترة لا أذكرها زارنى أخى الحبيب أمين

يوسف غراب فى البيت وأخبرنى أن الدكتور طه حسين يريد أن يرانى .
وأخبرنى أمين أن الدكتور قرأ روايتى وأنه معجب بها . فكدت أطيّر من
الفرح وصحت بأمين : وماذا ننتظر ؟ هلم بنا . وحين دخلت حجرة
د . طه وجدت معه الأستاذ عباس خضر رحمه الله وكنت أعرفه معرفة
وثيقة . وما هى إلا دقائق حتى قال الدكتور :

- لقد قرأت روايتك يا ثروت وأعجبت بها كل الإعجاب .
- هذا شرف لم أتصور أننى سأنالها يا معالى الباشا .
- أنت أديب قلت ما يريد أن يقوله عن طريق الرواية .
- الحمد لله .

وصمت قليلا ثم قال :

— الحق أنه لم يكتب فى تاريخ الأدب العربى عن الريف المصرى مثلما
كتبت أنت فى روايتك هارب من الأيام .
أصبحت الدنيا فى ناظرى زغاريد وموسيقى وبهجة لم أشعر بها حتى
وأنا ألقى خبر نبلى الجائزة .

وبعد أن جلسنا بعض الوقت استأذنت أنا وأمين ، فإذا الدكتور طه
يقول وهو يودعنى :
— لا تحسب أننى سأمدحك حين أكتب عنك ، ولكنى سأشد
أذنك .

فقلت والفرحة تزيد قلبى خفقا :

— مرحبا بكل ما يأتى منك يا معالى الباشا .

وما هى إلا أيام حتى طلبنى محرر من جريدة الجمهورية يريد منى

صورة ليضعها في المقال الذى كتبه عن روايتى د. طه حسين ، وسارعت بالصورة إلى الجريدة .

ولم أتم في هذه الليلة حتى الصباح ، وبكرت إلى الجمهورية وقرأت المقال . فوجدت المقالة الكبيرة التى كتبها د. طه ، ووجدته يأخذ على أن فئة تتظاهر بأنها تأخذ من الأغنياء لتعطى الفقراء بينما تستولى هى على الجانب الأكبر مما تستلبه . قال د. طه هذا ليس فى حياتنا وإنما كان أيام صعاليك العرب . أما باقى المقال فكان مديحاً لى ما زلت أشعر بالزهو أننى نلت من الأستاذ الذى أعتقد أن الأدب العربى الحديث قد تخرج على يديه .

انتظرت حتى أصبح الوقت مناسباً ، وفى الساعة العاشرة كنت أقف على باب رامتان وهو اسم الفيلا التى يقطنها الدكتور العميد ، وكان جالسا فى مكتبه ، واستقبلنى وهو يقول :

— إذن أنت لم تزعلى منى ؟

— أزعلى ؟ بل أسيح فى بحور من السعادة .

وصمت قليلا وقال :

— ثروتَ ماذا تقصد بروايتك ؟

— لقد قلت لى معاليك إننى قلت ما أريد عن طريق الرواية .

— لا شأن لك بما قلت . أخبرنى أنت ماذا تقصد ؟

— أرسم عهد الطفيلان الذى نعيش فيه .

— نعم هذا ما فهمته .

— إذا لم تفهمه أنت فكأننى ما كتبت شيئا على الإطلاق .

— ثروت اسمع . أستحلفك برحمة والدك وإني أعرف مدى حبك وإكبارك له ، وبجياقي وأنا أعرف مكانتي عندك ، ألا تخبر أحدا بهذا الذى تقول ، ولقد قصدت أن أموه فى مقاتلى ذا كرا صعاليك العرب وما إلى ذلك ، حتى تقول إذا ما سئلت بصفة رسمية إذا كان طه حسين لم يفهم أنتى أهاجم العهد فكيف تفهمون أنتم هذا المعنى ؟ ولهذا كتبت ما كتبت من نقد لك لأنظاھر بأنتى لم أفهم المعنى الذى قصدت إليه فى روايتك . يا ثروت نحن نحكم بجماعة ليس لها حدود فى الظلم والطغيان ، والله وحده يعلم ماذا هم صانعون بك إن تبادر إلى ذهن أحدهم المعنى الذى تدور حوله روايتك .

وتأثرت بحديث الدكتور طه كل التأثير . وكنت فى ذلك اليوم مسافرا إلى غزاة لبعض شأنى فما إن وصلت إلى البيت فى البلدة حتى بادرت بكتابة خطاب للدكتور طه أقول فيه ما معناه إنك بما كتبت عنى أثبت اسمى فى سجل الكتاب ، وهذا أمر ربما كانت الأيام تستطيع أن تصل إلى إليه فى قابلها مهما يكن هذا القابل بعيدا ، أما الحديث الذى دار بينى وبين معاليكم فقد وهب لى أبا بعد أن فقدت أبى ، وهذا ما أثق أن الأيام تعجز أن تقدمه إلى .

ذهبت إلى الدكتور طه بعد نيل الجائزة ، فإذا هو يبادرنى قائلا :
— ضحكت على الدولة يا أستاذ .

— مقالة معاليك أهم عندى من الجائزة .

كان مقدار الجائزة خمسمائة جنيه ، ونلت معها أيضا وسام العلوم

والفنون من الطبقة الأولى .

* * *

نلت الجائزة ولكنني ما أزال بلا عمل . وخطر لي أن أذهب إلى عبد الملك بك حمزة فقد كان صديقا لأبي ، بل إن أبي تمرن في مكتبه حين تخرج في كلية الحقوق عام ١٩١٢ . وكان عبد الملك بك رئيسا لمجلس إدارة شركة الملح والصدودا . وأحسن عبد الملك بك استقبالي ووعدني أن يجد لي عملا ، وطلب إليّ أن أعود إليه بعد أسبوع وفعلت ، ثم أجل موعدى أسبوعا آخر . كان كتاب ابن عمار قد ظهر في ذلك الحين فأخذت معي نسخة له وأهديتها إليه فتقبلها ، وطلب أن أعود بعد أسبوع آخر ، وذهبت فكان العجب .

ما إن جلست حتى بادرنى عبد الملك بك قائلا :
— أنا لن أعينك .

وطبعا سكت والدهشة لا شك قد طفرت إلى عيني .

— أنت عبقرى ، وأنا أرفض أن أدفن عبقريتك في الوظيفة .

لست أدري لماذا يظن الناس حتى الكبار منهم وأصحاب التجارب والثقافة أنهم أذكى من كل الناس . وأن الناس كلهم أغبياء إلا هم . لقد واجهت هذه الظاهرة من علماء ومن رجال سياسة كبار ومن فطاحل في علومهم ومكانتهم الاجتماعية لا يقدرُونَ ذكاء الآخرين ويحسبون أنهم يستطيعون أن يستغفلوا جميع الناس ، والحقيقة أنهم لا يستغفلون إلا أنفسهم .

وبصورة أكثر احتراما واجهت هذا المصير من عبد الخالق حسونة

باشا حين كان أميناً للجامعة العربية . فقد توسط إلى عنده عمى عزيز باشا لأعين بجامعة الدول العربية . وبين عبد الخالق باشا وأنى قصة طريفة سأذكرها لطرافتها .

كان أبى وزيرا للشئون الاجتماعية وكان عبد الخالق باشا وكيلا للوزارة ، وكان فى الوزارة موظف حصل على اثنتى عشرة دكتوراه فى القانون ومع ذلك كانت حركة الترقىات تتخطاه دائما ، ولشدة شعوره بالظلم كان يضع على باب الحجره التى يجلس بها ورقة تحمل اسمه وعناوين الدكتوراهات (إن صح الجمع) التى يحملها .

وشعر أبى بالظلم الفادح الذى يلاقه فطلب إعداد مذكرة بترقيته إلى الدرجة الخامسة ، وأعدت المذكرة وسارت فى طريقها المرسوم حتى وصلت إلى وكيل الوزارة تمهيدا لعرضها على الوزير . فإذا بعبد الخالق باشا يكتب على المذكرة « لا يرقى » ، وجاءت المذكرة إلى مكتب أبى فإذا به يكتب همزة واحدة فوق لا بسخرية من وكيل الوزارة وليوضح له أن الأمر أولا وأخيرا للوزير وليس للوكيل . وضع أبى همزة على لا وفصله بعدها فأصبح القرار لا ، يرقى . ورق الدكتور بقرار وزارى دون حاجة للرجوع إلى الوكيل أو غيره . واستشاط عبد الخالق حسونة باشا لهذه التأشيرة وقدم استقالته ، وكان وكيل الوزارة إذا استقال تعرض استقالته على مجلس الوزراء . ولم يشأ مجلس الوزراء قبول الاستقالة لموضوع ليس من العسير معالجته ، وتصدى عبد المجيد باشا إبراهيم الذى كان وزيرا حينذاك للموضوع وطلب إلى مجلس الوزراء إرجاء النظر فى الاستقالة حتى يبدل هو مساعيه بين أبى وبين عبد الخالق باشا . وفعلا دعا أبى والوكيل إلى

الغداء فى بيته . وبدأ عبد الخالق باشا العتاب وكان رجلا فى غاية الأدب والكياسة وحسن التأقى وكان دائما يقول كلمة مونشير لمحدثه وهى كلمة فرنسية تعنى يا عزيزى . قال لأبى :

— يا مونشير تكتب على تأشيرتى لأ ، يرقى .

فقال أبى :

— وأنت تمنع عن ترقية موظف تعلم أننى أمرت بترقيته .

— يا مونشير إنه لا يفهم شيئا .

— يا عبد الخالق بك أنت وكيل وزارة وأنا وزير وكل منا لا يحمل إلا ليسانس الحقوق ، أكثر أن أرقى موظفا يحمل ١٢ دكتوراه إلى الدرجة الخامسة ؟

— إنه ليس كفى .

— وهل رقيته إلى مدير عام ؟ إنها مجرد الدرجة الخامسة .

— بردون يا مونشير .

وانتهى الأمر وأصبح أبى من أحب الناس إلى عبد الخالق حسونة باشا ، كما أصبح عبد الخالق باشا من أحب الناس إلى أبى . وسحب الاستقالة وظل هو وأبى صديقين حميمين طوال الفترة التى قضاهما أبى فى وزارة الشؤون ، وامتدت الصداقة بينهما بعد ذلك لم تنقطع .

وعودا على بدء حين ذهب عزيز باشا إلى حسونة باشا يرجوه أن أعين بالجامعة وقال له :

— إن لم يكن من أجلى أنا فمن أجل والده الذى أعرف أنه كان صديقا أثرا لك .

وكنـت فى ذلـك الحين قد أصبـت نصيبـا من الشهرة ، فقال حسونة
باشا فى أدبه الجـم :

— يـا مونشـير ثـروت أبـاطة لا يـحتاج أن يـستند إلـيك ولا إلـى والدـه ، فـهو
نفسـه مكسـب للجامـعة وجـدير بـكل احـترام .

ومع ذلـك لم يـستطـع حسـونة باشـا أن يـجد لى مكانـا فى الجامـعة ،
وعلمـت بعـد ذلـك مـن لا أستطـيع أن أذكر اسمـه إنـجازا لوعـد قطعـته علـى
نفسـى ، أن الدـولة منـعت حسـونة باشـا أن يعينـى فـعجز الـرجل مع كل
النـيات الطـيبة نحـوى أن يعينـى بالجامـعة .

وهـكذا كنـت أقبل أى عـمل يعرض علـى حـتى لا تنسـع أمامى هـوة
الفراغ ، ومن بين الأعمال التى قبلتها علـى كرهـه شـديد وظـيفة رئـيس تـحرير
مجلة الإعلـان . وقـبل أن أمارس عـملى حـدث لى أمر جـدير بالرواية .. كنـت
فى منزلى ونزلت إلـى سيارتى وجلسـت فى مقعد القيادة ، وإذا برجل لا
أعرفه يفتح الباب الخلفى فى سـرعة ويدخل إلـى السـيارة ويبدأ بـحديث
عجيب : أنت فلان بن فلان ؟ وفى لحظـات روى لى كل صـغيرة وكبـيرة فى
حياتى ثم قال :

— شكـرا . أنا مكلف من المـخابرات بـعمل تـحريات عنك لأنك
ستصـبح رئـيس تـحرير مجـلة الإعلـان ، وأنا أعلم أنه ليس فى تاريخك ما
يستحق البـحث وراءه ، فقلت أسألك بدلا من اللف والدوران . أرجوك
ألا تخبر أحـدا بهـذا الذى صنـعته معك وإلا اعتقلت وشـردت وخرب
بيتى . سلام عليكم .

ونزل من السـيارة .

وقد نلت جائزة الدولة التشجيعية وأنا رئيس لتحرير مجلة الإعلان بالنون وليس بالميم . وصدر مرسوم وسام العلوم والفنون باسمي يحمل هذه الصفة في صلبه ، دليلا على حقارة العهد الذي كنا نعيش فيه وطغيانه وتخبطه وصغاره .

بعد هذا طلب مني عمى فكرى باشا أن أعمل بدار الهلال ، وطلب إليّ أن أنقل اسمي من جدول نقابة المحامين وأقيد نفسي في نقابة الصحفيين . ووافقت فقد كنت ضقت ذرعا بالمحاماة ، ووضح لي تماما أنني لن أصلح مفاوضا مع الموكلين وإن كنت أصيب كثيرا من التوفيق في ساحة القضاء ، حتى كان بعض المستشارين إذا وقت أمامهم في مرافعة يتهايمون أنهم سيسمعون كلاما رائعا ، وقد أتيح لي أن أسمع هذا الهمس لأن حاسة السمع عندي قوية إلى حد بعيد ورائة عن ألى رحمه الله . ولكن حدث لي مع الموكلين حادثتان جعلتا في أعزف عن المحاماة كل العزوف وأرحب بنقل اسمي إلى جدول غير المشتغلين في نقابة المحامين وإثبات اسمي بجدول المشتغلين بنقابة الصحفيين ، وكان ذلك في عام ٥٨ .

وقبل أن أقص هاتين الواقعتين يطيب لي أن أروى موقفى في المحكمة في أول مرة . كنت في ذلك الحين أتمرن في مكتب ابن عمنا الأستاذ محمد عبد الرحمن أباطة وذهبت أحضر عنه في قضية بمحكمة عابدين ، وقد تفضل الأستاذ محمد عبد الرحمن فصحبني إلى المحكمة ، وكان كل المطلوب مني أن أقوله لهيئة المحكمة .

« حاضر عن فلان ، وأرجو التأجيل لحين حضور المحامي الأصلي » .

(لمحات من حياتي)

وإذا عرفت أنني كنت أخطب في الناس مواجهة وأنا في الثالثة عشرة من عمري ، أى قبل يومى هذا بعشر سنوات وأحدثهم في الميكرفون قبل وقتى هذه بالحكمة بسنوات ، لأدركت كم كان ينبغي لى أن أكون هادئا وأنا أقول أرجو التأجيل لحين حضور المحامى الأصيل . ويزيد دواعى هدوئى أن المحامى الأصيل معى بالقاعة وعلى استعداد لإنقاذى فى أى لحظة . ولكننى مع ذلك شعرت برهبة متفاقمة مزلزلة وأنا أقف لأول مرة فى ساحة القضاء المقدسة . وقد لقيت بعد ذلك فى حياتى من لقيت رؤساء لأعظم دول العالم كما لقيت ملوكا وأمراء فلم أشعر فى أى لحظة فى كل هذه المقابلات بأى رهبة ولا مرئى أى شعور من خوف مهما يكن ضئيلا ، فما خشيت بعد الله إنسانا فى حياتى قط إلا أبى .

ولكننى مع ذلك ما زلت أذكر رهبتى وأنا أقف فى المحكمة لأقول هذه الكلمات القلائل . بل ما أحسبني مبالغا إذا قلت إن الرهبة تعود إلى قلبى كلما ذكرت هذا الموقف .

ولنعد الآن إلى الواقعتين :

واعتقد أنهما جديران بالقص ، فإحداهما أن قصد إلى أحد الموكلين يطلب منى أن أتولى قضية له فى مصلحة الضرائب ، وكان مدير عام مصلحة الضرائب فى ذلك الحين ابن عمتى المرحوم محمد كامل أباطة الذى كنت أعتبره أخا أكبر لى ، فعين جاء فى هذا الموكلى أدركت ما بعث به إلى . قلت له :

— لماذا جئتنى ؟

— لأنك محام شهير وعظيم ، وأنا مستعد أن أدفع لك أربعمائة جنيه

أتعابا في هذه القضية .

ولعل أبناءنا من جيل هذه الأيام لا يدرك ضخامة هذا المبلغ وفخامته ،
ولكن الذى لا شك فيه أن أبناء جيلي والذين يصغروننى يبضع سنوات
يدركون معنى هذا الرقم وقوته أن يكون أتعابا .

وسعت في القضية ووفقت فيها ولم أتقاض أية أتعاب .

أما الحادثة الأخرى فكانت حين جاءنى موكل أعرف أسرته لأترافع
عن أخيه المتهم بالاشتراك فى قتل سيدة عجوز ابنها ضابط بالجيش ، وكان
القتل بقصد السرقة . وكانت أسرة المتهم على صلة ببيتنا فقد كنا نبرهم .
وكانت القضية شهيرة وقد كان كثير من المحامين على استعداد أن يدفعوا
أموالا لأقارب المتهم ليرافعوا في هذه القضية . وكان المحامون عن المتهمين
الآخرين أحمد بك رشدى — واحد من أعظم المحامين فى عصره — وعلى
بك أيوب الوزير السابق والمحامى العملاق . وكان مجرد وقوفى إلى جانب
هذين الاسمين الجليلين أمرا من شأنه أن يجلب لى شهرة واسعة فى دنيا
المحاماة .

وعدت أطلع على الدوسيه . واطلعت وجاء أخو المتهم فقلت له :

— هل ارتكب أخوك الجريمة ؟

فأطرق وقال :

— نعم .

قلت :

— لقد قضى أخوك بعض الوقت فى مستشفى الأمراض العصبية

وهذا يتيح لى أن أطلب التخفيف وليس البراءة ، فإن قبلت أنا تحت

أمرك ، وإلا فاذهب إلى حمام آخر فنحن أقسمنا ألا نقول إلا الحق ولا أستطيع أن أحدث بقسمى ، وطبعا لم يعد . وقد تتبعت هذه القضية في الصحف وكانت قضية ذات شهرة أسمتها الصحف قضية أم الضابط . وقد تخلى عن القضية كل من أحمد رشدى وعلى أيوب وتولاها حمام ذو شهرة واسعة حتى الآن ، واستطاع بفضل ألعيته أن يحصل للمتهمين الأربعة على الإعدام . ولعله من الطريف أن أذكر تعقيا على هذه الواقعة حدث بينى وبين كبير المحامين فى عصرنا مصطفى بك مرعى الوزير السابق ، فقد رويت له هذه الواقعة فذكر لى قاعدة لم أكن أعرفها ، قال لى :

— إن المحامى لا يسأل الموكل إن كان ارتكب الجرم أم لا ولا شأن له إلا بالأوراق التى أمامه ، هى التى تكلمه وهكذا يتخلص كبار المحامين من تأنيب الضمير .

وهكذا وجدت نفسى لا أصلح محاميا على أية حال .

وذهبت إلى عمى فكرى باشا ، وقابلت إميل زيدان وتم تعيينى فى دار الهلال فلم أمكث محررا بالمصور إلا نصف ساعة ، ولم تكن الصحف قد أتمت بعد طبعا . والذى حدث أننى أعطيت مقالة لرئيس القسم الذى سأعمل معه ، فوجدته ييدى ملاحظات تدل على أنه لا صلة له مطلقا لا بالأدب ولا بالصحافة . وأدركت أننى كل يوم سأظل رائحا جاثيا بين مكتبى ومكتب عمى فكرى باشا لأكلمه فى الخلافات التى لا شك ستقع بينى وبين رئيس القسم الذى أعمل معه . والتردد على رئيس التحرير إذا جاز لكل المحررين والكتاب ، فإنه لا يجوز لشخص هو بمثابة

ابن أخى رئيس التحرير .

فخرجت من دار الهلال إلى لا عودة ، وإن ظلت أمدتها بقصصى القصيرة من الخارج .

وطبعا بعد أن أمت الصحافة أصبح تعيينى أمرا مستحيلا ، ولكننى ظلت أكتب من الخارج ، وكان من أعظم من أتاح لى فرصة الكتابة أخى وصديقى فتحى غانم فقد أفسح لى صفحة أسبوعية فى الجمهورية كتبت فيها مقالا عن الشيوعيين بعنوان « من خلال مجهر » صدرت بعدها الأوامر إلى فتحى غانم ألا أكتب عنده مطلقا ، وقد أبى الرجل العظيم أن ينفذ الأمر وطلب إلى أن أكتب فى غير السياسة وكانت هذه منه جرأة فائقة تمثلت فى هذه الشخصية الغدة ، وتكرر منه هذا الموقف الجرىء المشرف حين نشر لى روايتى « شئ من الخوف » فى صباح الخير حين كان رئيسا لمجلس إدارة روز اليوسف ، وكنت قد أعطيته الرواية وقال لى إذا جاءنى مقال من طه حسين فإنى أدفع به إلى المطبعة مباشرة دون أن أقرأه ، وكذلك الأمر إذا جاءتنى رواية من ثروت أباظة فإنى أدفع بها إلى المطبعة مباشرة . وقذفت لى هذه الكلمة إلى حيرة شديدة وإشفاق على الرجل العظيم فتحى أن ينشر الرواية ويفصل من عمله إذا لم يعتقل ، وأيد حيرتى أستاذى وصديق عمرى نجيب محفوظ الذى قال لى : لا بد أن تجعله يقرأ الرواية بأية طريقة . وطلبت فتحى غانم وقلت له أنا لا أريد مجرد نشر الرواية ، وإنما يهمنى أكثر من نشرها أن أعرف رأى الروائى الكبير فتحى غانم . وقرأ الرجل العظيم الرواية وقال لى : إنك لأول مرة تكون من وحدات شكلا متكاملا كالزخرفة العربية التى تكون فيها

الأجزاء شكلا متكاملًا ، وكأنما ليس بالرواية رمز . ونشر الكاتب الجريء الرواية في رجولة يندر أن يعرفها هذا الزمان .
أصبح التفكير في عمل صحفى بعد التأميم أمرا يعتبر نوعا من العبط الذى لا مثيل له . فاكثفيا بالكتابة غير المنتظمة في الصحف وبكتابة رواياتي والحمد لله على ما وهب ، والحمد لله على ما سلب ، وله الشكر على الحاليين .

* * *

نسيت في غمرة الحديث عن حياتي العامة أن أذكر لك حياتي الخاصة ، فقد رزقت في هذه الفترة بابتنى أمينة في أكتوبر عام ٥٥ ، وقد ولدت في يوم المولد النبوي في ذلك العام وولدت يوم الجمعة ساعة الأذان ، وقد حصلت على ليسانس الآداب قسم اللغة الفرنسية وعملت قليلا بأجر خيالي في المصرف العربى الدولى ، ثم وجدت نفسها غير صالحة للتعامل مع المال مهما يكن الأجر فلكنيا شأنها في ذلك شأن أبيها واستقالت ، وهى تعمل الآن بعقد في التليفزيون ورفضت التعيين به حتى لا تمسك الوظيفة بتلابيبها ، وهى قارئة في الفرنسية والعربية شديدة النهم في القراءة ، وقد ترجمت لى رواية « شئ من الخوف » ، ونشرت الترجمة ، والحب بينى وبينها من نوع عظيم فأنا أحب فيها خلقها الرقيق شديد الرقة ، ورهافة الحسن ونقاء السريرة إلى درجة لا أجد لها مثيلا في كل من عرفت في حياتي ، وبصورة تجعلنى دائما أشفق عليها ، فطبيتها وحرصها على معونة الإنسان والحيوان ما يجعلانها في حالة شبه روحانية دائمة لا يرتاح صاحبها أبدا . وكيف له أن يرتاح وقد جعل هموم العالم جميعها من

— ١٠٣ —

بشر وحيوان همومه هو الشخصية ؟ أسأل الله أن يهب لها من الخير والتوفيق قدر ما تهب هي لمخلوقاته جميعا .

ورزقت في يناير ٥٨ بابني دسوقي ، وقد نال ليسانس الحقوق وعمل بالنيابة ثم القضاء ، واليوم وأنا أكتب هذا الحديث تفضل الدكتور عصمت عبد المجيد فأصدر قرار تعيينه بالجامعة العربية .

وقد تعلم دسوقي في المدارس الفرنسية فهو يجيد الفرنسية إجادة تامة ، وهو كثير القراءة في العربية والفرنسية على السواء . ولعله من الطريف أن أروى كيف دخل كلية الحقوق ، فهو حين حصل على الثانوية العامة كان مجموعته لا بأس به وقال لي إنه يريد أن يدخل كلية الآداب قسم الفلسفة ، فقد كان كثير القراءة في كتب الفلسفة مما جعله يتعلق بها . فقلت له : افعل ما تريد ، وكل ما أرجوه منك أن تتحدث في هذا الأمر مع عمك نجيب محفوظ فهو خريج آداب فلسفة أيضا . فقال : وهو كذلك . وكنا في الإسكندرية ، وكنت أجلس مع نجيب بك في كازينو جليم وكان كل منا يتحرى أن يذهب مبكرا إلى الكازينو ليتاح لنا جلسة خاصة تتبادل فيها خاصة شائنا قبل أن يأتي الأصدقاء الآخرون . وصحبت دسوقي إلى هذه الجلسة وقال لنجيب :

— أريد أن أدخل كلية الآداب قسم فلسفة .

وقال نجيب بك :

— عظيم ! ولكن هناك شرط .

— ما هو ؟

— أن تكون أول دفعتك .

واندهش دسوقى وقال :

— وكيف أضمن هذا ؟

— إنك تدخل إلى قسم الفلسفة لأنك تهوى الفلسفة ، فإذا لم تكن الأول وتعين معيدا بالكلية لتظل وثيق الصلة بهوايتك ، فسينتهى بك الأمر أن تعمل موظفا فى الجمعية التعاونية . وطبعاً اقتنع دسوقى ودخل إلى كلية الحقوق وكان متقدماً فى دراسته ، وحين تخرج ظل سنة تلميذاً فى معهد الدراسات القانونية الذى لا بد أن ينتسب إليه الآن كل من يصدر القرار بتعيينه فى النيابة . وكان حظ دسوقى أن كان الأول على دفعته لإتقانه للفرنسية ، مما أتاح له السفر فى بعثة ستة شهور للدراسة فى فرنسا . ثم عاد وعمل أستاذاً للغة الفرنسية بعض الوقت فى نفس المعهد ، ثم تدرج فى النيابة حتى جلس على كرسي القضاء . وحين يظهر هذا الكتاب سيكون إن شاء الله قد مرت عليه فترة يعمل فيها بجامعة الدول العربية .

ودسوقى — بحمد الله — على أحسن صلة بربه ويقوم عنى بالإشراف على زراعتنا ، فهو متعلق ببلدتنا غزالة كل التعلق . ومن نعم الله علينا أنه شاب جاد غير هازل وإن كان هذا يجعله قريب الغضب ، ولكنه أيضاً قريب الرضا .

وقد تزوج دسوقى من ابنة الأستاذ منير حتاتة المحامى ووهب لنا :
ياسمين وهى فى الرابعة من عمرها ، وعفاف على اسم جدتها
— زوجتى — وهى فى الثانية من عمرها . والحفيدتان هما مصدر
سعادتى التى لا أشعر بمشيل لها فى أى منحى من مناحى الحياة إلا فى لعبهما

حول .

* * *

في هذه الفترة شهدنا حربين ، أما الحرب الثالثة فلها حديث خاص بها . صباح تأميم القنال كنت في الإسكندرية وذهبت إلى بئرو كشأني في كل صباح ، فقد كنت متعودا أن أجلس في ندوة الحكيم حتى الساعة الثانية عشرة ثم أذهب إلى نادى السيارات وأستحم في مسبحه . وذهبت إلى توفيق الحكيم وكان وحده وكان متحمسا كل التحمس للتأميم ، فعارضته معارضة شديدة متوقعا حربا ضروسا لا قبل لنا بها ، وذكرت له أن هذه مسرحية ستدفع مصر وشعبها لها ثمنا غاليا في مقابل لا شيء ، فالقناة ستعود إلينا بعد سنوات فلائل ليس لها قيمة في عمر الشعوب . وقال توفيق بك : أنت تكره العهد ، ولكن الإنسان في المناسبات الوطنية الكبرى ينسى كراهيته ولا يذكر إلا وطنه . واحتدم الخلاف ، وكنت طبعاً لا أستطيع أن أعنف به ففارق السن له في نفسى نوع من التقديس . فصمت قليلا وبدأ أهل الندوة يتقاطرون ، فقامت مزماراً ألا أعود وقد فعلت .

ومر يومان أو ثلاثة وإذا بالتليفون يطلبني في نادى السيارات ، وإذا بى أجد توفيق بك على الطرف الآخر يعتذر لى ويرجوني أن أعود إلى الندوة ، وكان رقيقاً رقة زائدة . فغفرت له ما كان بيننا من نقاش عنيف ، وعدت إلى الندوة فإذا الغالبية فيها من رأبى .

وفي أكتوبر حدث عدوان ٥٦ وكان الدمار الماحق إلى جانب الأرواح والأموال الطائلة التى فقدناها مع مهانة لمصر لا مثيل لها ،

— ١٠٦ —

وكانت خطبة رئيس الجمهورية في الأزهر تدل على الانهيار الكامل الذي دب في كيان عهده ، ومع إصراره على القتال فقد كان واضحا أنه في حالة ثورة عارمة ، وما دام هو نائرا فلتذهب الأرواح والبنائات وكرامة الوطن إلى الجحيم .

وفي أثناء العدوان كنت ألتقى بتوفيق بك وقال لي يوما :
— كم كنت أنت محقا وأنا كنت أعارضك ، وكم كنت مخطئا في رأيي .
وسكت طبعاً ولم أعلق .

ولولا أن أمريكا بخلق رعاة البقر غضبت لأن إنجلترا وفرنسا وإسرائيل أشعلت نيران الحرب دون إذن منها مما جعلها توجه إلى الدول الثلاث إنذارها الشهير ، لكان الخراب الكامل لمصر . وكان الإعلام المصري في هذه الحرب قد بلغ حضيضا لم يستطع أن يسفل عنه إلا في حرب ٦٧ . وفجرت الأغاني المصرية لتجعل من هذه المهانة نصرا ، فكنا بين شعوب العالم سخرية وأضحوكة لم يعرف العالم لها مثيلا إلا بعد ذلك بقراءة ثلاثين عاما على يد صدام حسين في حرب الخليج ..

ومرت السنوات وأقفل رئيس الجمهورية الطاغية شرم الشيخ ، وما حدث بيني وبين توفيق الحكيم حدث بيني وبين أنخي الأكبر وتوأم روحى عبد الرحمن الشرقاوى حين رأى هو في هذا العمل بطولة ورأيت فيه خرابا . وقد جرى الحوار بيننا في مكتبه بمؤسسة السينما بشارع سليمان باشا ، واحتدم بيننا النقاش وتركته على نوع هين من المغاضبة ورغم حبي له نويت ألا أتصل به في هذه الفترة حتى لا تتسع هوة

— ١٠٧ —

الخلاف . ونشبت الحرب وما كانت حرباً وإنما ما عهدتم من سحق كامل لجيوشنا وأرواح أبنائنا وأموالنا في مدن القنال .

وكنت طوال أيام الحرب في بيتي أتبع الأنباء من محطات العالم كلها إلا مصر ، فلم تكن مصر تذيع إلا الأكاذيب .

وفي يوم اضطررت أن أذهب إلى المجلس الأعلى للفنون والآداب لأستخلص بعض مستحقات لي ، فقد كان السفر إلى البلد مستحيلاً ونفذ المال من بيتي تماماً . وبعد أن حصلت على هذه المستحقات هممت بمغادرة المجلس . وبينما أنا في ممشاه سمعت اسمي على ألسنة السعاة يلهثون خلفي . وقفت وأبلغني المنادون أن يوسف بك السباعي يريدني في حجرته ، فصعدت إليه فإذا هو يقول لي :

— الدكتور ثروت عكاشة وزير الثقافة يريدك .

— يريدني أنا ؟

— نعم .

— خيراً ؟

— والله لا أدري . كلمني وقال إنه يريدني ويريدك معي .

— متى ؟

— الآن .

— لا بأس .. نذهب .

— هل معك سيارة ؟

— نعم .

— إذن أذهب معك .

— أهلا وسهلا .

وركبنا سيارتي هذه المسافة القصيرة بين المجلس الأعلى للثقافة وبين قصر عائشة فهمي حيث كان مقر وزير الثقافة . ولم نكد نتحدث أنا ويوسف بك فقد كان واضحا أن الألم يعتصر نفوس المصريين كلهم ، وكنت أضرب أحساسا في أسداس حائرا فيما يتخفى وراء هذا الطلب ، أأكون قلت شيئا يدل على غضبي ؟ ولكنني لا أخرج من بيتي . أنا أعيش بين إذاعات العالم منذ باكرا الصباح إلى أن يتوقف الإرسال . لم تطل حيرتي فسرعان ما وصلنا .

وحين دخلت مقر الوزير هدأ طائري . لم أكن أنا ويوسف بك وحدنا المدعوين بل كان هناك ما يقرب من عشرين كاتباً وصحفيًا من بينهم عبد الرحمن الشراوى الذى صالحته طبعاً . كنا جميعاً تحت وطأة شعور بالسخط والتشوف والتوقع ، ويغلف هذا جميعاً ألم يعتصر النفوس . وجلسنا على كراسي كانت معدة وأمامها منضدة ، ووراء المنضدة باب يفتح من الجانبين . ولم يطل بنا الانتظار وفتح الباب المواجه لنا وخرج الوزير وراح ينظر إلى كل الحاضرين فردا فردا ، فإن كان يعرفه ذكر اسمه ، وإن لم يكن استبان منه الاسم فيذكره له صاحبه .

ثم بدأ الوزير الحديث ، وعرفنا رسمياً أن الجيش المصرى قد انسحب ، وقال الوزير إن الانسحاب لا يعنى الهزيمة وإنما هو لون من ألوان القتال لا يدل على الهزيمة . وعرفنا من الوزير أيضاً أن الطيران المصرى كله قد دمر ، ولكنه قال ولكنني أؤكد لكم تأكيد مثقف مثقفين أن روسيا سترسل لنا طائرات أخرى إن لم تكن قد وصلت فعلا فهى فى طريقها إلى

الوصول في أقرب وقت . وتحدث الحاضرون ، وأذكر أنني قلت إنني أطلب الإعلام المصرى أن يذكر لنا الحقائق حتى نكون على بينة من أمورنا ، فإن الذى تطالعنا به الإذاعات الأجنبية مروع وفضيع ، ويبدو أنني تكلمت بلهجة حادة فراح الوزير فى وداعة يهدئ من روعى بكلمات رقيقة .

خرجنا من الاجتماع وصحبني عبد الرحمن الشرقاوى ونجيب محفوظ لأذهب بهما إلى منزلهما ، وفى الطريق كان أستاذنا نجيب مروعاً حزينا وكذلك كان عبد الرحمن الشرقاوى ، ولو أنه كان يكتب مقالاً يومياً فى تحية الجيش . وقد أثارنى منه قوله فى إحدى مقالاته : إنه لا يجوز أن يتكلم الشعب عن الخطط العسكرية لأنه لا يفهم شيئاً فى هذا المضمار . ولكنى لم أشأ أن أحدثه فى شأن هذه المقالة ونحن فى السيارة ، فقد كان ثلاثتنا فى حال لا تسمح بمزيد من الجدل . وأذكر مما قاله عبد الرحمن الشرقاوى فى السيارة :

— أليس من المحتمل أننا نسحب الجيش الإسرائيلى لنطوقه فى عملية كاشة ؟

فقلت له :

— وهل كنا ذاهبين إلى فلسطين لنحررها من اليهود ، أم لنطوق جيشها فى كاشة ؟

فقال نجيب محفوظ :

— لك حق .

وقال الشرقاوى :

— ١١٠ —

— والله الواحد أصبح لا يعرف شيئا .

وفي المساء في نفس هذا اليوم أعلن مندوبنا في هيئة الأمم استسلام مصر الكامل ، وكانت للإذاعة قناة متصلة بهيئة الأمم تعمل طوال فترة الاجتماع التي تعمل فيها الهيئة ، ومع توقعي لهذا توقعا لا جدال فيه وجدت نفسي أنخرط في نشيج عال من البكاء ، وراحت زوجتي أعزها الله تخفف عني غير واجدة من الكلمات ما تقوله إلا أنه ربما كانوا مخطئين . ربما يقول شيئا آخر .

وأحسب أنني ما زلت أبكي حتى اليوم على الرغم من الانتصار الخالد الذي حققه الجيش بقيادة السادات ومعاونة حسنى مبارك . وبعد أيام طلبت عبد الرحمن الشرقاوى في التليفون وقلت له :

— أنا لن أعاتبك على مقالاتك إلا على مقالة واحدة نهيت فيها الشعب أن يتكلم في وقائع الحرب . أهذا معقول ؟

وفي لهجة من كان ينتظر المكالمة قال لى :

— أتأتى لى أم أجيء إليك ؟

— تعال .

وبعد لحظات كان عندى فى البيت وبدأ كلامه :

— أولا أعتذر إليك لاختلاف رأيى عن رأيك ، فقد كنت أنت على

صواب منذ الوهلة الأولى .

ولم أجد شيئا أقوله ، وعاد نهر الأخوة الصافي يبتنا إلى جدول له لا يرنق

صفاءه شىء .

* * *

أحسب أن الأيام سارت بي سيرا رتيا بعد حرب أكتوبر ، وأحسب أنني في غير حاجة أن أقص أنباء رواياتي التي كتبتها ، فكل هذا ظهر في أحاديث إذاعية وتلفزيونية ومقالات ، وبعضها ذكرته في كتب .

بعد حرب ٦٧ انتقلنا إلى المعادى لنقيم مع عمى عزيز باشا والسيدة الفاضلة زوجته أمينة هانم في محاولة منا لضغط المصروفات كما يقول الاقتصاديون . وأجرت شقتي بالزمالك مفروشة ، وكان ما نناله منها يواجه حاجتنا الضرورية ، ثم كان اعتمادى بعد ذلك في مواجهة مصاريف الأولاد والملبس وبنزين السيارة على بيع أرضى وما كنت أتقاضاه من مكافآت من مقالاتى وقصصى ، ما ينشر منها في الصحف أو ما يذاع من رواياتى أو ما يؤخذ منها للسينما أو للتلفزيون . وفي هذه الفترة كان هناك وفد رسمى إلى العراق اشتركت فيه ، وكان معى فيه المرحوم صالح جودت وأخى الحبيب أنيس منصور أطل الله عمره . واتفقنا ثلاثتنا أن نذهب معا في سيارة إلى الكويت لنزور بها بعض الأصدقاء ، وقد كانت المرة الأولى التي أزور فيها العراق أو الكويت ، وكان معنا في العراق أيضا أخونا الشرقاوى وقد كان الاستقبال لأشخاصنا في العراق رائعا ، فقد قصد إلينا الصحفيون والإذاعيون وكنا موضع تقدير لا شك فيه . أما الهجوم على مصر فكان في كل خطب المهرجان وقصائده ، لقد كنا السخرية والنقد الضارى المروع ، فقد كانت هزيمتنا مذلة للعرب أجمعين .

وأذكر حادثة طريفة أننى ذهبت أنا والشرقاوى إلى فندق آخر غير الفندق الذى كنا ننزل به في بغداد ، وبالصدفة وجدت جماعة كبيرة من

أساتذتي في كلية الحقوق أذكر منهم د. علي راشد ود. سليمان مرقص وغيرهما . وكانت جلستي بجانب د. علي راشد فروى لي أمرا غريبا . كان هذا اللقاء في عام ٦٩ ، وأنا كنت تلميذا للدكتور علي راشد في عام ٤٨ ، وأذكر أنني أدت امتحان الجنائي في السنة الثانية أداء لا بأس به . ولكنني وجدت الدرجة التي نلتها ٦ من عشرين وهي أقل درجة تسمح بالنجاح بشرط أن يجزها امتحان الشفوي . وكنت قد نجحت فلم أشأ أن أثير موضوع ضعف الدرجة في الكلية ، ولكنني في جلستي مع د. علي راشد تبينت الأمر وذهلت له . قال د. علي :

— هل تعرف أنك كنت ستودي بي في داهية ؟

— لماذا ؟

— الورقة التي أجبت فيها عن الجنائي ضاعت مني .

فصرخت :

— ألهذا أعطيتني ٦ من ٢٠ ؟

— قلت أعطيه أقل درجة للنجاح ، وإن كان تلميذا جادا يحصل على

درجة أعلى في الشفوي .

— أهذا عدل يا دكتور ؟ .. على الأقل أعطني ١٠ من عشرين . لقد

ظلمتني ظلما لن أنساه لك .

وفعلا لم أنسه .

وذهبنا إلى الكويت في ذلك العام ، ومما لا أنساه تلك الحفاوة البالغة

التي لقيها ثلاثتنا هناك سواء من وسائل الإعلام أو من الهيئات والجماعات

والأفراد على السواء .

* * *

حين تولى الرئيس الخالد الذكر أنور السادات الحكم ، تلقيت النبأ بمشاعر بعيدة كل البعد عن الرضى . وكنت فى ذلك الحين أذهب كثيرا إلى الزعيم العظيم إبراهيم باشا عبد الهادى ، فقد كنت أقيم بالمعادى فى ذلك الحين حيث كان يقيم إبراهيم باشا . وقلت له فيما قلت : إننى لا أعرف أنور السادات إلا أنه كان يرسل لى بطاقة معايدة فى كل عيد ، ولم ينقطع عن إرسالها قط رغم أننى لم أكن أشكره على هذه المعايدة ، لأننى لا أعرف له عنوانا أرسل الشكر عليه ، أو لأننى كنت أعتقد أنها بطاقة عامة ترسل للجميع . ولكنى عرفت بعد ذلك من صديق عمرى عبد الفتاح الشناوى أن أنور السادات كان على صلة بأبى وهى صلة لم أعرفها أنا إلا من الشناوى الذى كان سكرتيرا فمدير مكتب لأبى . ثم قلت لإبراهيم باشا إننى لست متفائلا مطلقا برئاسته ، فإذا بالسياسى العظيم يقول لى : — سترى يا ثروت أن هذا الفتى هو خير من عرفت ، وسترى مصر على يديه خيرا لم نكن نحلم به .

وكنت أثق بآراء الزعيم السياسى أحد أبطال ثورة ١٩ ، والرجل الذى واكب الحياة السياسية وكان من صناعها فترة طويلة من الزمان تتجاوز نصف القرن .

ومرت الأيام وبدأت الأحداث تتوالى ، فإذا السادات سياسى داهية من الطراز الأول .

ولكن وعده بحرب فلسطين ليرد إلى مصر شرفها لم يكن يدور بخلدى

(لمحات من حياتى)

أنه سينفذه ، وقد أكد لي هذا تأكيداً لا يقبل الشك مقالات محمد حسنين هيكل بالأهرام التي كانت جميعها تجعل الحرب ضرباً من المستحيل لا يتحقق إلا بقبلة ذرية .

وفي أحد الأعوام أطلق عليه السادات عام الضباب ، يقصد بذلك أن الأمور لم تكن واضحة أمامه في ذلك العام ولذلك امتنع عن الحرب . وأقيم معرض للكتاب في ذلك العام وكانت روايتي الضباب معروضة في المعرض ، فكانت الجماهير تقف أمام الرواية وتضحك .. أهذا هو الضباب الذي يقول عنه الرئيس ؟

إلى هذا الحد كنت ومعى الأغلبية الكاثرة من الشعب المصرى لا نصدق أسطورة الحرب هذه .

وكان الأستاذ توفيق الحكيم والأستاذ نجيب محفوظ يشاركان في هذا الرأي . وفي يوم دخلت إلى مكتب توفيق بك في الأهرام ولم أكن عملت به بعد ، فأطلعنى على بيان مكتوب بلهجة عنيفة معناه أنه ما دام أمر الحرب مستحيلاً فلا أقل من أن ننال حريتنا ونعود إلى الديمقراطية الغائبة عنا منذ سنوات .

وأمر هذا البيان معروف ، فقد عزلونا من الاتحاد الاشتراكي ، والذي وقع على قرار عزلي زميلان لي هما د. كمال أبو المجد ومحمد حامد محمود وكلاهما متخرج معي في نفس الدفعة . وقد أرسل لي محمد حامد مع شقيق زوجته محمد واثق يقول لي إنه يعلم أنه عزلني من الاتحاد الاشتراكي رغم أنني لست عضواً به ، ولعل في هذه الجملة ما يغنيني عن التعليق . ومنع السادات أسماءنا أن تظهر بالصحف ، ونشرت الصحف

أنه سينظر في أمر كل كاتب على حدة إذا قدم الكاتب تظلما من قرار العزل هذا .

وكلمت أخى الأكبر الحبيب يوسف السباعى :

— طبعا ستشفع لى ليرفع عنى قرار العزل وقرار الحظر .

فقال :

— طبعا .

— أرجوك ألا تفعل ، فإننى لن أقدم تظلما .

وثار بى أخى يوسف بك ، ولكنها كانت ثورة حببية إلى نفسى لأنها

كانت صادرة عن حبه العميق لى .

وحدث فى هذه الفترة أننى كنت مرشحا لمرافقة وفد أدبى فيه عمى

عزيز باشا إلى تونس ، فرفع اسمى من الوفد وأبلغت بذلك فلم أهتم أى

اهتمام ، إلا أننى أسفت لأننى حرمت من مرافقة عمى عزيز خارج مصر ،

فقد شاء الله على كثرة أسفاره وأسفارى — ألا يجمعنا بلد آخر خارج

مصر حتى وفاته رحمة الله عليه .

وحدث أن ذهب الشاعر الرقيق صالح جودت ويوسف بك السباعى

إلى عزيز باشا وطلبا إليه أن يقنعنى بالعدول عن موقفى ، فكان عزيز باشا

عظيما وهو يقول لهما :

— إن ثروت ليس زوج ابنتى فقط ، ولكنه عندى أنا ابنى المقرب ،

وأنا على استعداد أن أحادثه فى أى شىء إلا فى مواقفه السياسية ، فهذه

شأنه وحده .

واستدعى الرئيس السادات توفيق بك للقاءه ، وروى لى توفيق بك

بعد ذلك أنه في أثناء الحديث لم يذكر من أسماء الموقعين جميعهم إلا اسمي أنا .

— كيف ؟

— قال في حدة وغضب : وثروت أباطة !

— هذا مبتدأ فأين الخبر ؟

— لم يكمل الجملة .

وقد رت أنا استنتاجاً أنه كان يتوقع مني التأيد لا المعارضة بعد القدر من الحرية الذي أتاحه ، ومع علمه بمعارضتي الشديدة للعهد السابق لعهد .

وسافر عزيز باشا إلى تونس وعاد ، وبعد فترة سافر إلى الكويت ، وما هي إلا أيام حتى جاءنا خبر بأنه أصيب هناك بأزمة قلبية حادة . ورحنا نعد أنا وزوجتي للسفر فإذا بي أفاجأ في الجوازات أنني ممنوع من السفر ، ورحمه الله يوسف السباعي مثلاً أعلى في الوفاء والإخلاص والقلب الكبير الذي يسع الناس أجمعين . ما هي إلا ساعة حتى أبلغ الجوازات برفع الحظر عن اسمي ، وسافرت وزوجتي إلى الكويت .

وكانت الأزمة حادة . ومكثنا بجوار عزيز باشا لا نتركه إلا للنوم . وحين اطمأنت نفسنا بعض الشيء طلبت مني إذاعة الكويت أن ألقى بها بضعة أحاديث ، فرأيت أن أكتب عن روعة السرد القصصي في القرآن الكريم ، وقد جمعت أحاديثي هذه بعد ذلك في كتابي « السرد القصصي في القرآن الكريم » .

وحين اطمأنت نفوسنا على عزيز باشا عدنا إلى مصر ، ولحق بنا

عزيز باشا بعد أيام . وقد شاء الله أن يكرمه فاختاره إلى جواره وهو في بيته وبين أهله . وقد فقدت بفقده أبا حانيا لي ولابنتي وابني ، وكانت كارثة عظيمة ربما مهد لها الله سبحانه وتعالى بمرضه الذي أنذرنا بالخطب قبل وقوعه .

وكنا قد انتقلنا في هذا العام إلى القاهرة . سبقت أنا بالعودة ولحق بنا الباشا وأميئة هاتم ، ليسكننا الفيلا الواقعة بأعلى العمارة التي أقيم بها أنا وأسرتي في الدور الأول منها . توفي عزيز باشا في ١٠ يولية عام ١٩٧٣ ، ولم يشهد الحرب .

* * *

كنت أنا وعبد الفتاح الشناوى وعبد الرحمن الشرقاوى ومحمود محمد محمود بك وعبد المجيد باشا بدر ود . محمد هاشم باشا وآخرون نقضى فترة الظهيرة من رمضان في مقهى صغير مواجه للبنك الأهلى اسمه بار الأنجلو ، وكان جميعنا صائما فكنا ندفع أثمان طلبات لا تقدم إلينا ولكننا نبرر بها وجودنا في المقهى . وكنا نظل نتحدث في شتى الأمور حتى يقترب موعد صلاة العصر فنقوم ونستقل سياراتنا إلى واحد من المساجد الكبرى بالقاهرة أو نتجه إلى مسجد أثرى ونقيم الصلاة جماعة ، ثم نتمشى في الحى بعض الوقت ويكون المغرب قد آذن بالأذان فتتجه إلى بيوتنا قبيل الإفطار بدقائق . وفي أوائل أكتوبر فوجئنا بقرار من الرئيس السادات برفع الحظر عن أسمائنا وإعادة أعضاء الاتحاد الاشتراكى إليه . وفي العاشر من رمضان سمعنا نبأ الحرب ونحن مجتمعون بالمقهى ، وتولانا جميعا الذهول . ولا أخفى أننى أصبت بهلع فإن مصر لم تكن

تحتمل هزيمة أخرى ، ولا يعقل أن جيشا هزم هزيمة ٥ يونية سنة ١٩٦٧ يستطيع بعد سنوات ست أن يقلب الهزيمة إلى نصر .

ولكن المعجزة الإلهية تحققت على يد القائد العملاق الخالد أنور السادات ، وبمعاونة رئيسنا العظيم حسنى مبارك أطال الله عمره وأيده . ما كان أهون ما عاقبنا به أنور السادات ! لو وقع منا هذا الذى فعلنا فى عهد الرئيس السابق عليه لكان الموت أقل ما يواجهنا . وأذكر فى هذه المناسبة أن صديقا لى من الكتاب اقترح علىّ بعد هزيمة يونية أن نكتب بيانا ندعو فيه رئيس الجمهورية إلى إعادة الحرية لمواجهة عواقب الهزيمة ، وتحمست لهذا الاقتراح وكتبت البيان ووقعته فكان أول الناكسين عن توقيعه الكاتب الذى اقترحه . ولم يوقع معى البيان إلا نجيب محفوظ وحده وأبى جميع الكتاب التوقيع . ولن أذكر أسماء الذين عرضت عليهم التوقيع .. وطبعاً لم أرسل البيان .

أصبحت أنا وتوفيق بك ونجيب بك من أشد المتحمسين لأنور السادات ، ورغم أننى لم أكن كاتباً ثابتاً بأى جريدة فقد حرصت على نشر تأييدى الصريح للزعيم العملاق فى تحمس لا مثيل له ، وكذلك فعل الكاتبان الكبيران توفيق الحكيم ونجيب محفوظ .

وبعد فترة عرفنى خالى مدحت بالسيد بك مرعى ، وقد وجدت فيه إنسانا غاية فى الرقة والعذوبة كما وجدت فيه سياسيا حاذقا متمرسا . وأبلغنى السيد مرعى أن الرئيس السادات معجب بما أكتب ، واقترح خالى مدحت أن الأوان قد آن لأعين بمكان ما فى الصحافة ، وقد وجدت الفكرة ترحيبا من السيد بك . وأبلغنا بعد ذلك أن الرئيس أيضا يرحب

بالفكرة ، وبعد قرابة سنتين علمت من السيد بك أن الرئيس سيأمر بتعييني في مجلة الإذاعة والتلفزيون كرئيس لمجلس إدارتها . وكان د. كمال أبو المجد في ذلك الحين وزيرا للإعلام الذي تتبعه المجلة ، والتقيت به وأخبرني برغبة الرئيس كما أخبرني أن الرئيس يهتني على روايتي « لقاء هناك » . والواقع أن لقائي بكمال أبو المجد لم يترك في نفسي أثرا طيبا ولا وجدت منه ما كنت أتوقعه من زميل دراسة وصديق .

وأذكر أنه عرض عليّ أن أعمل معه بالوزارة فرفضت طبعاً ، فراح يثير حديثاً عن العقبات التي ستواجهني في المجلة فلم تقنعني . وكنت في يوم لقائه أعد نفسي لرحلة عمرة اتفقنا أن يتم تعييني بعد عودتي منها ، واعتمرت وعدت . وكانت أمينة هانم صدقي في لوزان بسويسرا في ذلك الحين فاستدعت زوجتي أن تذهب إليها ، ورحبت زوجتي بالدعوة فهي تحب السفر إلى الخارج حبا جما ، وتحرص عليه حرصاً شديداً مهما تكن العقبات . وسافرت وبقيت أنا . وشاء الله أن يخرج كمال أبو المجد من الوزارة ، ويوقع قرار تعييني أخى الأكبر وواحد من أقرب الناس إلى قلبي يوسف السباعي . وأبلغت زوجتي بسويسرا أنني عينت وأتولى رئاسة مجلس إدارة الإذاعة والتلفزيون ، ولن أذكر عن الفترة التي قضيتها بها شيئاً ولكن ما قاله لي عميد الصحافة العربية المعاصرة مصطفى بك أمين :

— كيف استطعت أن تجعل من الفسيخ شربات ؟
وأحمد الله .

وحدث أن كتب الأستاذ جلال الحمامصي مقالا يشكك به في نزاهة .

الرئيس الأسبق . ووقف السادات في خلق الفلاح الأصيل يدفع التهمة في إصرار دون أن يدفع الحجة بالحجة ، وإنما كان دفاعا عن صديق له ، مهما يكن الدفاع نوعا من الخطابة وليس تفنيد وقائع .

وقلت في نفسي كنا نكتب رمزا حين كنا لا نستطيع أن نصارح ، واليوم أنا مسئول وحدى عن المجلة التي أكتب فيها . فمتى أقول الحق الصريح إذا لم أقله اليوم ؟

وكنت أنتظر توفيق بك الحكيم في صباح أحد أيام الجُمع بالطابق الأعلى من فندق النيل ، وكنا قد اتخذنا منه مكانا لندوتنا . ويبدو أنني ذهبت مبكرا فوجدت نفسي أُخرج بعض أوراق وجدتها في جيبى بها . كتابات ولكن بها أيضا فسحات من البياض تتيح لى الكتابة ، فرحت أقطع الانتظار بكتابة المقالة التي غيرت مجرى حياتى . وقد كانت أول مقالة صريحة تظهر في الصحافة العربية تهاجم الطاغية . وحين جاء توفيق بك كنت قد انتهيت من كتابة المقال ووضعتة في جيبى ولم أذكر عنه شيئا لأحد ، حتى ذهبت في صباح السبت إلى مكتبى في المجلة . .

وإني أعتقد أن من حقلك على أن تقرأ هذا المقال فقد بُعد العهد به ، فهو قد نشر في ١٤ فبراير سنة ١٩٧٦ ونحن في أكتوبر سنة ١٩٩٢ ، وإليك المقال :

« وفي أى شيء صدق ؟! »

آية غريبة أن يقال ما يقال ؟! وما المال وقد سرق أمننا ، ولص كرامتنا ، وامتنص دماء أبنائنا ، وأهدر على رمال سيناء شرف مصر والعرب ، وتاريخ أمة ومستقبلها . .

وفي أى شيء صدق حتى يصدق في ذمته !؟
قال ارفع رأسك يا أخى . وحطم كل رأس فكر في الارتفاع أو فكر فقط . وأبى أن يجعل أحدا من الناس أخا ، بل أرغم الجميع أن يكونوا عبيدا له أو هم أعداء .

قال ديمقراطية ، ثم فشا وحده مسعورا ، منفردا بالحكم ، مبسولا وحده عن كل خفقة نفس في البلاد .

وقال قضينا على الإقطاع ، فإذا بأصحاب الملايين في عهد الرأسمالية كانوا لا يتجاوزون أصابع اليدين عددا ، فأصبحوا خمسمائة نتيجة لعهد ، ثروة الواحد منهم مهما تبلغ من الضالة تلتهم ملايين الإقطاع جميعا والإقطاعيين .

وقال ثورة بيضاء ، ثم أهدر دماء الشباب في حروب اليمن وحرى سيناء من أجل مجده الشخصى ، ومن أجل خراب مصر في دمائها ومالها وكرامتها .

وأسال الدماء في خسة غادرة مجرمة وراء أسوار السجون والمعتقلات .

قال الشرف وهدد الرجال في عفة زوجاتهم وشرف بناتهم وأخواتهم .

قال تكافؤ الفرص وأغدى الأموال على أبنائه ، حتى لقد كان الواحد منهم يلهو بقيادة طائرة لا يحلم أغلب الشعب أن يركبها مرة في حياته ، وتقدمت ابنة له تفكر في شراء أرض يتجاوز ثمنها مائة وخمسين ألف جنيه ، ولقب ابنه بالمليونير في إذاعة لندن ، وسكب أموال الدولة على

إخوته وعلى كلابه من ماسحى أحذيته ولاعقى نعاله ، فهم ينبحون باسمه حتى اليوم وقد فجعتهم فيه الفاجعة ، وزالت من أفواههم دماء الشعب التي أتاح لهم أن يمتصوها . تؤيدهم في نباحهم فئة أخرى اعتدى عليهم في المعتقلات وجعل زوجاتهم بلا موئل لطول حبس الأزواج ولحبس المال عنهم . ومع ذلك ينبحون باسمه مع كلابه النابحة .

لأن الحكم الجديد . قال الله .

وقال الحرية .

وقال القانون

ونفذ ما قال وانتصر .

في أى شيء صدق ؟

قال الرجل المناسب في المكان المناسب ، ثم اختار أهون الناس وجعل منهم رؤساء على العمالقة ، ووضع في أغلب المناصب رئيسا جاهلا لأن الجهلاء هم علماء النفاق ، فانهار العمل في الحكومة وفي القطاع العام . وحين قال محافظ من علمائه :

أعط القانون إجازة .

رقى إلى وزير لأنه عبر عن شعار الدولة .

في أى شيء صدق ؟

دعا إلى الاشتراكية . وعاش .. وعاش خدمه والمحظوظون من أتباعه عيشة تتضاءل عندها عيشة الفجار من العاهرين في الرأسمالية . فسمعنا عن فواكه تأتي بالطائرات ، وعن سيارات نقل تحمل الفراء والسجاجيد . ويعلن هذا علينا حتى يغضب على الفاعل ، ويستر علينا

حتى يترضاه ويضع رأسه تحت قدميه . ألا إلى غير رجعة يا زمن الهمس والصراخ ، والنوم المفزع ، والقلق الشائع ، والخوف المبيد ، والعرض المباح ، والدم المسفوك ، والشرف الجريح ، والتاريخ الممزق ، والأمل المظلم ، واليوم الكالخ ، والغد العبوس ، والحق المضاع .

ويقولون اكنموا على السرقات أن تضيع ، فإنها إن شاعت أحجمت أموال العالم عن مصر والانفتاح . جهلوا الحقيقة ، لن تأتى الأموال وأصحابها يعرفون أن اللصوص هنا تتخفى وراء الأستار تحمل معها التشكيك فى أمانة بلادنا . يوم تنكشف الحقائق ويعرف العالم أننا أصبحنا على الطريق القويم ، شريفة أيدينا ، واثقة نفوسنا ، مطمئنا اقتصادنا ، يأتى إلينا أصحاب الأموال شرفاء واثقين مطمئنين .. والحق دائما بالدول أجدر .

ولست بحاجة أن أذكر الدوى الذى تفجر عن هذا المقال . وكان الأستاذ حسن عبد المنعم رئيس اتحاء الإذاعة والتليفزيون ، وكانت مجلة الإذاعة تابعة له تبعية اسمية فأرسل إلى بكلمة لأنشرها مؤداهما أن ما كتبت لا يعبر عن رأى الاتحاد ، فنشرت الكلمة وعلقت عليها فى نفس الصفحة بما معناه أن أصابع الكتاب حرة لا يتخللها أصابع الآخرين من ذوى المناصب الحكومية أو من غيرهم .

وهاج يوسف بك السباعى وكان وزيرا للإعلام والمجلة تابعة له طبعاً . وقال لى :

— هل أكتب أنا هذا الكلام ؟

— ولماذا تكتبه أنت ؟ وهل كتبت أنت هارب من الأيام وقصر على

— ١٢٤ —

النيل وشيء من الخوف . أنت تعرف قدر حبي إياك ولكن هذا لا يعنى مطلقا أن أكتب بقلمك .

وبيعت النسخة من المجلة في هذا اليوم بخمسين قرشا وكان ثمنها الرسمي عشرة قروش . وعرفت أن الكثيرين وضعوا المجلة في إطار وعلقوها في بيوتهم ، وأصحاب المحلات علقوها في محالهم .

وظلت المقالة حديث الناس فترة طويلة . وفوجئت يوما بيوسف السباعي يستدعيني إلى مكتبه في الوزارة ويفاجئني بقوله :
— ما رأيك أن تأتى للعمل معي وكيلا للوزارة ؟

فقلت في حسم :

— لا يمكن ، أستقيل أحسن .

— أترفض العمل معي ؟

— أرفض أن أترك الكتابة ، وأنا بهذا أحمي عهد السادات الذي يذيع أنه يتيح الحرية للكتاب ، ثم ينقل كاتباً إلى عمل إداري لأنه كتب مقالا لم تأمر الحكومة بكتابته .

— يا أخى إنك لم تعين إلا بطلوغ الروح .

— ما زال عندي بضعة أفدنة أبيعها ولا تحمل همى .

— الوزراء غاضبون وثائرون .

— هذا شأنهم .

وفي يوم أبلغت أن أحضر جلسة مجلس الشعب التي سيلقى فيها الرئيس السادات خطابه ، وذهبت ووجدت جميع رؤساء مجلس الإدارة للصحف والمجلات قد دعوا إلى الجلسة وكان معنا عبي فكرى بإسارحه

— ١٢٥ —

الله . وجلسنا فى مقصورة الملكة بالدور الثانى من الشرفة ، وألقى الزعيم خطابه الذى ألغى به المعاهدة التى كانت قائمة بين مصر وروسيا . وفى أثناء الجلسة صعد إلينا من أخبرنا أن الرئيس يريد لقاءنا بعد الخطاب فى حجرة رئيس المجلس . وانتهى الخطاب وذهبنا إلى لقاء الرئيس ، وكنت حريصا أن أقود خطوات عمى فكرى نظرا لضعف نظره ، وكان الزعيم السادات واقفا حين دخولنا فوقفنا حوله بعد أن صافحنا وقال :

— نحن قلنا ما نريد قوله ولا أرى ضرورة لمهاجمة روسيا .

فوافق الحاضرون على رأيه ، ثم التفت إلئى قائلا :

— يا ثروت اكتب مقالة أخرى أحسن الجماعة زعلانين . اكتب

مقالة أخرى .

قلت :

— لقد كتبت مقالة بعدها ، هل قرأتها سيادتك ؟

قال فى سراحة :

— قرأتها ، إنما المقالة الأولى لم أقرأها .. اكتب مقالة أخرى .

— أمرك .

وخرجنا ، وسرت مع عمى فكرى باشا وقال لى :

— ماذا ستفعل ؟

— لا أدرى .

— إنه لم يستدعنا جميعا إلا ليقول لك ما قال .

— هذا واضح .

— امدح الرئيس السابق .

— الموت أهون .

وذهبت إلى البيت وأدركت أنني إذا ما حاولت النوم فإن النوم سيستعصى عليّ ، فأمسكت بالقلم وكتبت ما معناه : في ظل الحرية التي أتاحتها لنا أنور السادات سننسى ما فات ، ونحاول أن نقيم ما تحطم من نفوسنا .

وكان مقررا أن يسافر الصحفيون مع الرئيس السادات إلى السعودية ، وسافرت فطالعتني في السعودية أمر لم أكن أتصور أنني ملاقيه . فقد تعرفت في الطائرة بالدكتور محمد عبده يمانى وزير الإعلام حينذاك ، وحين وصلت إلى الفندق لم تمض إلا بعض الساعة وحدثني في التليفون من يلغنى أن وزير الإعلام في انتظارى على الغداء وقد دعا معى الأستاذ أحمد زين . وذهبنا وهناك التقيت لأول مرة بعالم الدعوة الإسلامى العالمى فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى ، وفرحت بلقائه كل الفرح وكنت قد شهادته يخطب جموع الحجاج في البيت الحرام ، وكانت الدمعات تتقاطر من عينيّ ومن عين زوجتى ونحن نستمع إلى خطابه ، وقلت له هذا فإذا هو يقول في خفة ظل لا تتأقّى إلا له :

— أى خطبة يا مولانا . سمع عليّ سمع .

وإذا هو يلقي علينا مقالتي « في أى شيء صدق » من الذاكرة فقد حفظها عن ظهر قلب ، ولا أحد يتصور ما داخلنى من شعور في هذه اللحظات ، فما تصورت أن أسمع كلامى محفوظا من أحد مطلقا فما بالك وحافظه هذه الظاهرة التاريخية في العالم الإسلامى .

وقال الشيخ الجليل :

— لقد قرأتها ثم ظلمت أنظر إليها فما رفعت عنها عيني إلا وقد حفظتها جميعا .

وكان في رفقة الرئيس السادات واحد من أنسباء الرئيس السابق ، وحاول أن يقوم ببعض السخافات في خفية عنى طيعا ولم يحاول أن يواجهنى ، فتجاهلت أمره وكأنه شئ غير موجود . وقد كان كذلك بالنسبة لى فعلا .

وعدنا إلى القاهرة ، وكان من المقرر أن يحدث تغيير عام فى الوزارة وفى الصحف على السواء ، فى نفس الوقت الذى كنا نستعد فيه للسفر فى رحلة إلى أوروبا مع الرئيس . وظهر التأليف الوزارى الجديد فعلا وخرج يوسف السباعى من الوزارة وجاء مكانه جمال العطيفى ، وبدأت التغييرات فى الصحافة وكان رئيس الوزراء الرجل المهدب الإنسان ممدوح سالم .

وبينما كنت فى مكتبى بالمجلة طلبنى رئيس الوزراء وحدد لى موعدا للقاءه ، يخيل لى فيما أذكر أنه كان فى نفس اليوم .

ولا أنسى الجزع الذى بدا على أسرة المجلة ، الأمر الذى أسعدنى ولم أتصور أن يتغير مكانى بعد أن طلب منى الرئيس أن أكتب مقالة أخرى . ولكننى على كل حال لم أكن مهتما . وذهبت إلى مكتب رئيس الوزراء فوجدت معه الأستاذ إحسان عبد القدوس الذى كان إلى هذه اللحظة رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ، فانتظرت — وقليل ما انتظرت — ودخلت إلى ممدوح بك وكان رقيقا إلى درجة أنه لم يجلس إلى مكتبه وإنما جلس إلى الأريكة وجلس بجانبه ، وقال لى دون مقدمات :

— ١٢٨ —

— الرئيس يريد أن تكون كاتباً في الأهرام .
ودون ريث تفكير قلت :
— قوى .

— عظيم .. إذن لا تخبر أحدا واستمر في عملك حتى يصدر القرار .
— والسفر إلى ألمانيا ؟
— إذا لم يصدر القرار قبل السفر ، رافق الرئيس .

وودعني الرجل في أدب جم وخرجت .
وتجمع بعض المحررين في المجلة وراحوا يسعون لدى رئيس الوزراء
ولدى سيد بك مرعى رئيس مجلس الشعب ولدى الرئاسة أن أبقى في
مكاني ، مما جعلني أكلم سيد بك مرعى وأرجوه ألا يتغير قرار نقل
للأهرام ، وأن الذي يقوم به بعض المحررين يتم دون علم مني . فقال سيد
إنهم يعرفون ذلك على وجه اليقين والجمع هنا تفيد الرئيس لا شك في
ذلك .

وحدث في هذه الفترة أن التقيت بالسيد بك مرعى ربما في نفس يوم
لقائي برئيس الوزراء ، وعرفت منه أن يوسف السباعي سيكون رئيساً
لمجلس إدارة الأهرام .

فحين خرجت من مقابلة رئيس الوزراء حرصت أن أكلم اثنين :
صديق عمرى على حمدى الجمال وأخى الحبيب يوسف بك . وجدت
على الجمال بسهولة وقد فرح رحمه الله نبأ ذهابى معه إلى الأهرام فرحا
هائلا . أما يوسف بك فعلى غير العادة لم أجده في أى مظنة من مظانه التى
أعرفها جميعا ، فلم يطلبنى إلا بعد ما يزيد عن ساعة فقلت له :

— ١٢٩ —

- أنا وراك وراك .
فضحك وقال :
— ورائى فين ؟
— أنا ذاهب معك إلى الأهرام .
— ماذا ؟
— أخبرنى رئيس الوزراء اليوم أن الرئيس يريدنى كاتباً فى الأهرام .
— صحيح ؟
— صحيح .
— وأنا كيف عرفت أنى ذاهب إلى الأهرام ؟
— معلوماً فى الخاصة .
— يعنى من أخبرك ؟
— المفروض أنه سر .
— علىّ أنا ؟
— لك حق . ليس عندى سر دونك . أخبرنى سيد مرعى . يكفى ؟
— يكفى جداً .
طلبت من مكتبى فى المجلة الوزير الجديد جمال العطينى لأهنته
بالوزارة ، وصاح فى فرح :
— أخيراً سنعمل معا .
ودهشت أن ذهابى إلى الأهرام ما زال سرا عليه ، فقلت :
— كم كنت أتمنى ذلك .
— تتمنى . وماذا حدث لهذا التمنى ؟

(لمحات من حياتى)

— أنا ذاهب إلى الأهرام .

ودهش دهشة واضحة في التليفون ظهرت من ألفاظ كثيرة . ثم سألته عن السفر إلى أوروبا فقال لي : إننى رسميا ما زلت في مكاني . وأن على أن أمضى في عملي كأن شيئا لم يكن .

وفعلا سافرنا إلى ألمانيا ليليدأ الرئيس رحلته إلى أوروبا . وفي اليوم التالي لوصولنا عرفنا أن قرارا قد صدر بتعيين الأستاذ يوسف السباعي رئيسا لمجلس إدارة الأهرام ، والأستاذ أحمد بهجت رئيسا لمجلس إدارة الإذاعة ، ولم يذكر اسمي في شيء من القرارات .

وكانت رحلتي هذه رحلة ممتعة ، فأنا غير مطالب بعمل أو بكتابة شيء ، وكل ما على أن أتزّه . وكان على حمدي الجمال معنا فطلب إليّ ونحن في الرحلة أن أتولى القسم الأدبي في الأهرام فلم أمانع ، وحين عدنا مرت بضعة أيام ثم استدعاني يوسف السباعي ليخبرني أن قرار نقلي إلى الأهرام قد صدر .

وبدأت عملي بالأهرام ولم يمر طویل وقت حتى فجعت بالرصاصه الغادرة المجرمة التي أصابت رجلا من أعظم الرجال الذين عرفتهم وأحببتهم في حياتي ، يوسف السباعي . كان يوسف السباعي في عهد الطغيان هو مانعة الصواعق عن الأدباء ، ولولاه لدمر الأدباء في مصر تدميرا كاملا شأن كل ما هو كريم مشرق في حياتنا ، رحمه الله رحمة واسعة وتقبله بين الصديقين والشهداء .

* * *

دق جرس التليفون في بيتي في أحد الأيام وكان المتحدث د. طلبة

عويضة أمين عام الحزب الوطنى بالشرقية ، وأخبرنى أن الرئيس السادات يريدنى أن أنضم إلى الحزب الوطنى لأنه يريد أن يرشحنى لمجلس الشورى . ولما كنت مؤيدا كل التأييد للسادات فلم أجد ما يمنعنى من الانضمام ، وأرسل إلى الدكتور طلبة أوراق العضوية وانضمت إلى الحزب الوطنى .

وكلمت زميل دراستى الوزير حلمى عبد الآخر أن يرشح الحزب عبد الفتاح الشناوى فى المطرية ووعد خيرا . وعلمت بعد ذلك أن اسمى عرض فى اجتماع الهيئة البرلمانية لمجلس الشعب فى الشرقية . كان الحزب قد ارتأى أن يعرض أسماء المرشحين فى كل محافظة على أعضاء مجلس الشعب بها . وكان الحاضرون فى الجلسة خمسة وعشرين عضوا عرفت أنهم وافقوا بالإجماع على ترشيحى فى مجلس الشورى ، فحمدت الله على هذه الثقة . وسافرت لقضاء الصيف بالإسكندرية ومن هناك وقبل ظهور الترشيحات بيوم واحد ، طلبت أختى المرحوم حلمى عبد الآخر لأطمئن على ترشيح عبد الفتاح الشناوى فقال لى :

— لن يظهر اسمه فى الترشيحات ، ولن يظهر اسمك أنت أيضا .

فضحكت وقلت :

— أنا لم أطلب الترشيح لنفسى .

فقال :

— الرئيس السادات قال إن ثروت أباطة لا يجوز أن يرشح عن دائرة واحدة فى القطر المصرى ، بل من حقه أن يمثل مصر كلها ، ولذلك فقد قررت أن يكون اسمه بين المعينين لا بين المرشحين .

وقد سعدت بهذا التقدير وحمدت الله أن وقانى من جهد الانتخابات
المضنى .

وفى هذه الأثناء كان اتحاد الكتاب قد أعلن أنه يرجو الرئيس السادات
المواقفة على أن يكون الرئيس الفخرى للاتحاد . ووافق الرئيس السادات
وكان رئيس الاتحاد فى ذلك الحين توفيق بك الحكيم وكنت نائب
الرئيس ، وحدد لنا الرئيس السادات موعدا للقاءه وإهداء وثيقة الرئاسة
الفخرية له فى منزله بالمعمورة وكنا فى رمضان ، وتناول أعضاء الاتحاد
طعام الإفطار بنادى السيارات بالإسكندرية ، وكنت قد أعددت كلمة
ألقياها أمام الرئيس . وبعد الإفطار قصدنا إلى استراحة الرئيس واستقبلنا
بكثير من الحفاوة وأحببت أن أمارح توفيق بك الحكيم الذى أجلسه
الرئيس بجانبه ، فذهبت وملت على أذن الرئيس السادات فإذا بالرجل
العظيم يهب واقفا حتى لا أحادثه وأنا واقف وهو جالس ، فقلت له
بصوت يسمعه توفيق بك :

— أتعرف سيادتكم لماذا أنابنى توفيق بك فى إلقاء كلمة الاتحاد ؟
— لماذا ؟

— لأنه سيكتب ولا ينال أجرا على ما كتب .

وضحك الرئيس ملء فمه وقال لتوفيق بك :

— لماذا يعاكسك أبنائك يا توفيق بك ؟

وضحك توفيق بك .

وألقيت كلمتى وعلق عليها الرئيس السادات تعليقا كريما ، ومن
طريف ما دار حول الكلمة أن عضوا من الاتحاد مشهورا بتفاهته سألنى :

— ١٣٣ —

هل أنت الذى كتبت هذه الكلمة ؟ فلم أجب عن سؤاله وإنما رويته على سبيل الفكاهة لصديقى سعد وهبة ، فضحك وقال :

— إن لم يكن أنت كاتبها فلا بد أن يكون طه حسين هو الذى كتبها ، فهذا الأسلوب لا يكتبه إلا هو .

وقد رويت هذه الواقعة لأظهرك على مدى التفاهة التى قد يصل إليها بعض مدعى الأدب .

ومن طريف ما حدث فى ذلك اليوم أن الرئيس السادات بعد انتهاء مراسم الاحتفال ظل بيننا يجوس الحديقة متحدثا للأدباء ، وأذكر أننى قلت له :

— يا سيادة الرئيس أنت أول إنسان فى التاريخ يضحك على اليهود . فضحك وقال :

— ييجن يقول دائما : لن أنسى ما فعلته بى عمرى كله . قلت له :

— يا سيادة الرئيس سيادتك غضبت من البيان الذى كتبناه ، بينما كان البيان من ضمن علامات التمويه التى استعملتها سيادتك بدكاء شديد قبل المعركة .

فضحك وقال :

— فعلا .. فعلا لك حق .

ولم يتركنا الرئيس إلا بعد أن رجوته أن يصعد إلى البيت حتى يصيب قدرا من الراحة بعد هذا الجهد ، فقال :

— شكرا .. لك حق .

وصعد .

ولقيته بعد ذلك في أوائل أيام اجتماع مجلس الشورى في لقاء استدعاني إليه ، فازددت به إعجابا في الاجتماع الذى لم يكن معنا فيه ثالث .
وانتهى المصيف وعدت إلى القاهرة ، وفي يوم بينما كنت في مكتبى بالأهرام طلبنى أخى أنيس منصور فى التليفون وقال لى : إن الرئيس السادات يهثك بتعيينك فى مجلس الشورى . فشكرت صديق العمر ورجوته أن يشكر الرئيس باسمى .

أما كلماتى فى مجلس الشورى فقد نشرت بالجرائد ولا أستطيع أن أجمعها ، ولا أرى داعيا لذلك أيضا .

ولكن وقعت قصة طريفة أجد من حقها أن أنشرها . فى إحدى الجلسات تكلم أخى عبد الرحمن الشرفاوى وكنت أعارض كل ما قاله ، فوقفت بعد جلوسه لأرد عليه وأذكر أننى شددت عليه النكير وتكلمت بحماسة معارضا له . وجلست وكان عبد الرحمن يجلس ورأى فى المجلس ، فغمز كتفى وقال :

— ألا تحب أن تشرب فنجان قهوة ؟

— أحب جدا .

— هيا بنا .

وخرجنا أنا وهو نرتشف القهوة ونحدث فى كل شىء إلا ما دار بيننا فى الجلسة . وكان الأعضاء كلما رأونا دهشوا وضحكوا وأبدوا لنا تعجبهم من جلستنا معا ، فكنا نقول لهم : اختلاف الرأى شىء ،

والصدقة شيء آخر .

* * *

في يوم مصر الحزين الذي فقدت فيه زعيما من أعظم زعمائها كنت في سويسرا ، والله وحده يعلم كم بكيت وأملت رثاءه بالتليفون من لوزان . ولم أطق أن أكمل الفترة التي كنت مقررا أن أبقى فيها خارج مصر حزنا على السادات ، فقطعت إجازتي وعدت إلى القاهرة .

وكان د. صبحي عبد الحكيم رئيس مجلس الشورى في ذلك الحين قد أصيب في ساقه في يوم المنصة المشثوم فبادرت بزيارته ، فأخبرني أن الرئيس مبارك يريد أن يراى .

و كنت قد التقيت بالرئيس العظيم في اجتماعات الحزب الوطنى وتكلمت أمامه حين كان نائبا لرئيس الجمهورية ، ومن أفضاله عليّ وعلى كتاب مصر أننى طلبت في أحد الاجتماعات أن تعفى الحكومة الكتاب الأدبى من الضرائب أسوة بالكتاب الجامعى ، وكانت حجتي أن الكتاب الجامعى سيوزع حتما أما الكتاب الأدبى فمصييره مجهول .

وفي الاجتماع التالى أعلن السيد الرئيس مبارك :
— وأعفينا الكتاب الأدبى من الضرائب ، علشان خاطر الأستاذ ثروت .

وأذكر أننى تكلمت أمامه بضع مرات وكنت ألع في وجهه رضائه عن كلماتى .

فحين أخبرنى د. صبحي أن الرئيس يريد أن يراى ، بادرت بطلب المقابلة . وبعد أيام قلائل كلمنى صديق لى على صلة بالحزب الوطنى

— ١٣٦ —

ليخبرني أن الرئيس سيراني في الساعة الواحدة من يوم كذا .
وقبل الموعد بربع ساعة كنت في مقر الرئاسة فلقيني الرجل
الذى أصبح من أحب أصدقائي أخى جمال عبد العزيز سكرتير الرئيس ،
وفي ابتسامة مشرقة قال لى :

— إنك ستقابل الرئيس ، ولكن لماذا تأخرت ؟

— كيف ؟ إن موعدى الساعة الواحدة .

— بل موعدك الساعة الحادية عشرة .

— لقد كلمنى فلان وأخبرنى أن موعدى الساعة الواحدة ، وليس من
المعقول أن أتأخر عن موعد مع رئيس الجمهورية .. وأنا أدور بالسيارة
منذ نصف ساعة حول المقر حتى أحضر قبل الموعد بربع ساعة .
وضحك جمال بك وقال : إن الذى كلمك لا شأن له بمواعيد
الرئيس ، وعلى كل حال حصل خير .

ولقيت الرئيس العظيم ، ومنذ ذلك اليوم وأنا أشعر أننى أحظى بثقته
لأنه أدرك أننى لا أكذبه فى شىء قط ، وأدرك أيضا أننى غير طامع فى شىء
على الإطلاق .

وكلفنى الرئيس العظيم بعد ذلك ببعض مهام أرى من حقه على أن
أبقيها طى الكتمان ، فقد كانت جميعها لمصلحة مصر ومصر وحدها ، وفى
يوم من الأيام فوجئت بالأستاذ سامى متولى صديقى وزميلى بالأهرام
يكلمنى فى بيتى :

— مبروك !

— مبروك ماذا ؟

— ١٣٧ —

— ألا تعلم ؟

— لا والله لا أعلم .

— لقد رشحك الرئيس لتكون وكيلا لمجلس الشورى .

— أنا لا أعرف شيئا عن هذا مطلقا .

وكان موعد نومي في القيلولة قد حان ، فدخلت حجرتي ونمت
كأننى لم أسمع شيئا ، وحين صحت أبلغنى أهل بيتى أن الأستاذ كمال
الشاذلى سأل عني ، وقبل أن أطلبه طلبنى وقال وهو يضحك قائلا :

— أنت نائم يا أخويا ؟

فضحكت وقلت :

— هل هناك مانع ؟

وأبلغنى نبأ ترشيحي لو كالة مجلس الشورى التى ما زلت أشغلها
حتى اليوم .

أيها القارئ العزيز :

هذه لمحات من حياتي ورأيت أن أقدمها بين يديك قبل أن يجف مني
القلم وترتعش مني اليد . ربما أكون قد أخفيت شيئا ولا شك أيضا أنني
نسيت أشياء ، ولكنني أحسست أن من حق القراء الذين وهبوا لي
رضاءهم الذى أحيا به وله ؛ أن يعرفوا بعض الخوافي من حياتي . وأحمد
الله إليهم أنني اليوم لا أطمح إلى أى منصب ، فإن أى منصب سيقف
حائلا بيني وبينهم إلا هذا المنصب الذى أشغله اليوم ، والذي أقنع به كل
القناعة لأنه يتيح لي أمرين هما كل ما أعيش له : أولهما أن أخدم في مجلس
تشريعى مصر التى أعبدتها بعد الله عبادة محب يقدر أرضها وسماءها

— ١٣٨ —

وشعبها وهواءها وكل ما فيها ، أما الأمر الثاني فهو أن أظل ممسكا بهذا القلم ليكون صلة بينك وبينى ، وهى صلة أعتبرها أنا أكرم الصلات وأشرفها وأرفعها قدرا فى صلات البشرية جميعا ، والحمد لله على الكثير الكثير الذى أعطى والقليل الذى منع ، له الشكر والفضل على الحالين تقدرت آلاؤه .

ثروت أباطة

الأهرام فى ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٩٢

الموافق ٣ ربيع ثانى سنة ١٤١٣

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

روايات للمؤلف

- ١ — ابن عمار .
- ٢ — هارب من الأيام .
- ٣ — قصر على الليل .
- ٤ — ثم تشرق الشمس .
- ٥ — لقاء هناك .
- ٦ — الضباب .
- ٧ — شيء من الخوف .
- ٨ — أمواج ولا شاطئ .
- ٩ — جذور في الهواء .
- ١٠ — خشوع .
- ١١ — القربان .
- ١٢ — الغفران .
- ١٣ — بريق في السحاب .
- ١٤ — لحات من حياتي .

رقم الإيداع : ٩٣/٧٦٩٨
الترقيم الدولي : 1 - 0827 - 11 - 977

مكتبة مصير
٣ شارع كامل صدقي - البجالة

الثلث ٣٠٠ قرش

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه